هشاشة روح

هشاشة روح

الكاتبة: د. منى محمود

تصميم الغلاف: محمد محسن

المراجعة اللغوية: محمد أحمد عبد الغفار

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٨٦٣٥

الترقيم الدولي: ٥-١٤-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل: ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥

٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤

هشاشة روح

مجموعة قصصية

د. منى محمود

إهداء

سلامٌ عليكَ يا من طوتكَ الأرض عنِّي..
وما زلتَ بروحكَ في طيات القلب مُعتكفًا..
سلام طيب حنون من روحي المُعذَّبة..
لروحكَ الطاهرة.. في السماء هناك.
أحبكَ أبي.

شكر خاص

أشكر الله الذي باركني بإهدائي باقة من أرق الأرواح وأجملها.. ساندتني، وأمدَّتني بثقةٍ كنت في أمس الحاجة إليها وأنا أخطو أولى خطواتي في الكتابة..

كل الشكر والتقدير والعرفان للأديبين الرائعين أسامة أحمد العمري، وعادل إدريس المسلمي، لما قدَّماه لي من دعم؛ إذ لم يبخلا عليَّ أبدًا بوقتهما الثمين وخبرتهما الرائعة.. لكَم أتمنى أن أصبح يومًا قطرةً في بحر علمكما أستاذيَّ الكرام.. شكرًا بحجم الكون.

كما أتوجَّه بخالص الشكر لزهرة القلب والروح: الشيماء إسماعيل، وللصديق القارئ الخلوق هاني زكريا.. عبق وجودكما في الحياة لن يُنسَى.

باقة وردٍ لكل من أهداني عطر روحه، أو مرَّ يومًا من هنا.. دمتم أحباء.

المقدمة

يُقال إن الأشياء تأتي لترحل..

دومًا ما تغيبُ شمسنا عنَّا، لتشرق في مكان آخر.. قد يبدو لنا بعيدًا بعيدًا..

ولكن، يتسلل بصيصها ليربت على دواخلنا على الرغم من البعاد، مؤكدًا أن هناك حكمةً ما وراء كل ما يحدث، وكل ما هو آتٍ..

هناك دومًا ما يحيك ماضينا بحاضرنا، ومستقبلنا..

فهل ستدرك أرواحنا بغيتها، أم سنظل نبكي المغيب؟!

لحظة ميلاد

«ما بين حُلم واهٍ، وواقع مُثقل بالمخاوف..
سنظل عالقين!»..

أتراك مررتَ بما قد مررتُ به أنا؟
لا أظن!

إنه لشعور فريد؛ شعور مجيئك من اللاشيء. نعم، من العدم أتيت إلى هنا. لا، بل من اندماج جسمين مختلفين.. من الجنون أن تصدِّق أنه باستطاعتهما فعل كل ما حدث لي!

عالقةٌ تفاصيل تلك اللحظة بمُخيلتي، لا تكاد تفارقني. كانت الأجواء مُفعمةً بنشوةٍ لا مثيل لها، مُشيرةً إلى أن شيئًا جللًا يحدث، أو ربما سيحدث..

ما زلتُ أتذكَّر ملامحهما لحظةَ اندماجهما المُثيرة، التي تكوَّنْتُ أنا إثرها. رأيتهما بوضوح لحظة تكويني، وسرعان ما تبدَّلَت ملامحهما بعدها بسرعة خارقة.

كانا مُتباينين تمام التبايُن؛ أحدهما كبير الحجم جدًّا، إذ يبلغ قطرُه حوالي مئتي ميكرون، بينما لا يتجاوز الآخر خمسة ميكرونات، ذو رأس مُدبب، ورقبة، وذيل طويل سريع الحركة. أسرع الرأس المُدبب باختراق الجسم الأول كالقذيفة؛ بشغفٍ ونهم فعلَ، فكان اندماجهما.. وكنتُ أنا.

بدأ الانقسامُ على الفور..

راحت أهدابٌ رقيقة تدفعني عبر قناة ضيقة، وصولًا إلى مكان رحْب؛ حيث انغرست خلاياي في جداره على الفور، والتحمتُ به شيئًا فشيئًا.. وتوالت الانقسامات بلا هوادة..

شعرتُ فجأةً بشيءٍ ينبض بداخلي؛ خفقات منتظمة غريبة، لا تتوقف.. ظهرت براعم علوية وسُفلية، سرعان ما تحوَّلَتْ إلى أطراف.. وأعضاء تنمو هنا وهناك..

وبعدها، حدث لي ما لا يمكنني وصفه أو نسيانه أبدًا، وأبدًا لن يمكنني! لحظة باهرة، لم تُدركها أعضائي الصغيرة حينها. قد يمكنني الآن وصف ما حدث بعض الشيء.. كان وكأنه قبسٌ من نور تَمَلَّكني.. نشوة.. دفء.. طمأنينة.. لا أدري ماهية شعوري على وجه الدقة، على الرغم من أنه لم يزل يتملَّكني حتى الآن، ولا أظنه سيفارقني أبدًا!

أنا على خيرِ حالٍ الآن، بعد أن تضخَّم حجمي جدًّا، أتهدهد فوق سائل يُدلِّلني، وأتجرعه أحيانًا، كان صافيًا في البداية، ولكن تزداد عكارته تدريجيًّا بمُضي الوقت.

قد أضحى بإمكاني التحرُّك، والركل متى أشاء. أعترف أنِّي كنت أفعلها برفقٍ في البداية، ولكن مؤخرًا، زاد عنف ركلاتي بشدة.

أشعر بانتعاش غريب.. أطرب لسماع الأصوات بالخارج، حتى إني أقفز أحيانًا من فرط سعادتي بها، ضاربًا بيدي ورجلي كيفما يحلو لي..

لم أدرك أنِّي كنتُ في الظلام إلا حين استشعرتُ الضوء بالخارج، كان مُزعجًا في البداية، لكنِّي اعتدته.

أشعر أحيانًا بخروج أشياء منِّي، تبدو لي كبقايا جلد ميت، وإفرازات كانت مُتجمِّعة بداخلي، سرعان ما أراها تختلط بالسائل حولي.

كنتُ، طوال الوقت، أشعر بكيانٍ هُلامي يحتضنني. أعلم أنه هو من يمدُّني بكل شيء قد أكون بحاجة إليه.. يحتويني بحنان.. يربت عليَّ ما بين الحين والآخر ليُطمئنني، فأطمئن.

لا أراه حقيقةً، وأعتقد أنه كذلك، لكني أستشعر دفئه بقوة، فأمضي أداعب هذا الحبل الطويل الذي يجمعنا، ويجعلنا دومًا متصلين ببعضنا البعض.

كل أموري هادئة، تسير على ما يُرام، باستثناء ما حدث لي قريبًا؛ فبعد أن كنتُ جالسًا في سائلي المُريح، تتجه مؤخرتي إلى أسفل، وجدتني ألتف شيئًا فشيئًا.. حتى أصبح رأسي بالأسفل،

صرت متقوقعًا على نفسي، يداي مُتشابكتان، ركبتاي منثنيتان، ورأسي مُطأطأ؛ حتى إن ذقني لامست صدري بقوة!

ساورني القلقُ بشدة، حين أحسستُ برأسي ينزلق للأسفل..

أراني أبتلع كميات كبيرة من السائل حولي..

أشعر بقوة رهيبة تعتصرني، كانت تأتي مُتباعدة، حثيثة.. وسرعان ما تزايدت وتعاقبت. ماذا فعلتُ لها كي تلفظني من مخدعي؟!

انكمشت مكاني، وتضاءلت حركتي من شدة خوفي، أحاول التشبُّث، ولا أستطيع..

تتزايد الجلبة في الخارج، أصوات صاخبة مُتداخلة، لم أسمعها قط! صراخ.. حركة سريعة، تكاد تقتلعني من جذوري.. أصطدم بأجزائي وجدراني.. تعتصرني تلك الانقباضات الغريبة أكثر.. أتألم.. أبكي.. ولا أحد يشعر بي!

حتى تلك اليد الحانية، أراها قد انصرفت عنِّي..

يقلُّ مائي من حولي..

شعرتُ فجأةً بقوةٍ هائلةٍ تدفع بي من أعلى، تزجُّ بمؤخرتي ورجلي عُنوةً لأنزلق خارجًا.. لماذا؟ اتركوني.. دعوني..

ماذا فعلت لكم؟ دعوني..

لا أريد الرحيل من هنا..

بكيت.. وبكيت.. وبكيت..

بينما تزداد مُحاصرتي من كل جانب.. كل ما حولي ومَن حولي يبغون طردي..

كلا.. دعوني.. لن أُحدِثَ جَلَبةً.. لن أركلَ بعنفٍ بعد اليوم.. أستحلفكم، دعوني..

وكأنهم لا يرون ولا يسمعون.. ولا يفقهون.. ولا حتى يرحمون..

ألقوا بي إلى الخارج، عاريًا، شريدًا، بلا مأوى يعصمُني..

بلا مائي..

بلا جُدراني..

برودة شديدة..

غُربة مُميتة..

كتمتُ دمعي خوفًا منهم، وأغلقتُ عيني بشدة.. فلا أعلم ما قد يُفعَل بي إن لم يرُق لهم بكائي!

أحسستُ بضوء هائل يؤلم عينيَّ المُغمضتين..

اقتربوا من حبلي بنصلٍ حاد.. مزَّقوه.. فانفرط دمعي بداخلي..

أمسكوا بي من قدميَّ، وعلَّقوني في الهواء، كانت أول مرة يستقيم فيها جسدي هكذا.. صفعوني على ظهري.. بعنفٍ فعلوها.. وبعنفٍ أكبر كرروها.. ما أقساهم!

ما أقساكم!

تملَّكني اليأس والهوان..
لم أحتمل، فانفجرت في البُكاء والصراخ..
أبكي ويضحكون..
أبكي ويضحكون!
وما زلتُ، وما زالوا..
أبكي.. ويضحكون!

ثورة جِيَاع

«تعلَّمتُ أن الأسرارَ العُضال لا تُقال..
إلَّا حين الاحتضار..
فاقترب.. لتسمع همس روحٍ..
تبوحُ بآخر ما تبقَّى لديها!».

انطلقت الرصاصة بلا تردُّد، لتستقرَّ في منتصف ظهره تمامًا، وتبعتها الثانية.. والثالثة.. ليسقط أرضًا، لافظًا أنفاسه الأخيرة.

أسرع بعدها صاحب المحل بجسده البدين، لينتزع دجاجته من بين يدي الجثة المتكوِّمة تحت قدميه. لم يكتفِ؛ فراح يركله في وجهه، ويجذبه من شعره ليدفع برأسه في الطريق، مرة ومرة.. حتى سالت الدماء منه بغزارة، فألقى برأسه أرضًا، كما يُلقي بعقب سيجارة انتهى لتوِّه منها ولم يعُد بحاجة إليها.

لم يتدخَّل أحد، بل لم يكُن هناك من أحدٍ، سوى أربع عيون مُتلصِّصة، حاولت اقتناص الفرصة لتقتحم المحل هي الأخرى؛

لعلَّها تحظى بفرخ دجاج.. ولكن، رصاصة رابعة من المسدس دفعتهم إلى الفرِّ هاربين، ليتبعهم قطيع الكلاب بنباح باكٍ.

كان هذا آخر ما شاهدتُه من نافذة منزلي، حين دفعني زوجي للداخل، وأغلق النافذة.

عرفتُ منه في اليوم التالي أن صاحبَ محلِّ الدواجن قام بذبح ما تبقَّى لديه من طيور قليلة، وأغلق المحل للأبد، وتبعته في ذلكَ محال كثيرة.. وكان قد سبقهم الكثير.

أتى زوجي بعدها بقضيبين من الخشب، أغلق بهما النافذة، مكتفيًا بترك شقوق صغيرة لنتنفس من خلالها. أدركتُ حينها أنه لا يريد لي أن أرى ما يدور بالخارج، فأطرقتُ موافقةً، واحتضنتُ صغيري.

كان الجوع يطرق الأبواب بلا رادع، لا يستثني أحدًا.. يحطِّمها فوق رؤوس أصحابها، فيجعلها تعدو كالمجنونة في الطرقات، على استعداد لفعل أي شيء وكل شيء، كي تتخلَّص من تقلُّصات الجوع المُخزية.. عارٌ هي، وألف عار!

لكم هو مُهين ألَّا تجد لديك ما يسد جوع صغارك..

تراوغهم مرة، تكذب عليهم مرة.. ثم ماذا؟

ماذا في السرقة من أجل الطعام حينها؟ بل ماذا في القتل إن تطلَّب الأمر؟!

لا يأمن المرء على نفسه مسيرة شبر واحد؛ فخلت الطرقات سوى مِمَّن تساوَى لديهم الموت والبقاء..

لا أمن ولا أمان.

في كل مرة ينوي فيها زوجي الخروج من أجل الحصول على الطعام، أشير له بيدي بأن «لا»، ينهمر دمعي وأركع وأُقبِّل قدميه بأن «لا». يومئ برأسه وعينيه بالموافقة، يحتضنني ويجلس، محاولًا تهدئتي. وما إن يتلوَّى الصغير من شدة الجوع، فأطرق ساهمةً، أتظاهر بانشغالي بأي شيء؛ أكاد حقيقةً لا أراه أمامي.. حتى يتسلل زوجي خلسة، فأجلس أبكي حتى يعود.

على الرغم من المؤشرات السيئة التي تعاقبت في السنوات الأخيرة، فإنَّ تداعي الأمور حدث بشكل حادٍّ ومُزعج.

أضحت البيوت مهجورة؛ لا تعي يقينًا إن كان قد هجرها أهلها، أم ماتوا بغُصَّتهم بداخلها..

لا أحد يسأل عن أحد.. ولا أحد يعرف أحدًا..

نَفسي نَفسي..

الموت في الطرقات..

الذي يخرج لا يعود..

خرج زوجي ولم يعُد!

عبر الشقوق الضيقة في النافذة، تتلصص عيناي.. رأيتُ أكثر من مرةٍ تكوُّمًا لجثث هنا وهناك. تتساوى الجيَف؛ بشرية كانت أم حيوانية؛ تتعفَّن، تتحلَّل، البقاء للذباب وللديدان.. سيأتي اليوم الذي سنُباد فيه بالكامل؛ فتهلك.

أهرب من الشقوق، لأنطوي على نفسي مُحتضِنةً صغيري، بعد أن أصبحنا أشبه بهيكلين عظميين من وطأة الجوع..

تتصاعد رائحة العفن.. لا ترضى بوحدتها، فتمتزج بريح الخذلان.

من كل مكان تنبعث.. أتراها تدخل عبر الشقوق من الشارع، أم من نوافذ الجيران المفتوحة بعد أن تحلَّلت جثثهم بالداخل، أم من...؟

لقد كذبت..

قد عاد زوجي!

أضاءت أخيرًا الأضواء الزرقاء في سقف الحجرة؛ تلك التي وضعها زوجي منذ بداية زواجنا، وأوصلها بزرٍّ خاصٍّ خارج الشقة، عن طريق سلك كهربائي طويل؛ لنعلم أن هناك مَن يطرق الباب.

أسرعتُ حينها لأراه من العين السحرية، وبلهفة فتحت الباب، لأرى كل علامات الإعياء على وجهه. كان شاحبًا شحوب الأموات، ينزف الدم من رأسه وذراعيه ورجليه..

يحمل بين يديه بعض الدقيق والسُكَّر..
وقبل أي إشارة، سقط ميتًا..
تناولت السُكَّر والدقيق، وأغلقت الباب.
رقدتُ في حُمَّى بعدها، لعددٍ من الأيام لا أعلم مداها.
أضعُ أمام صغيري قطع العجين، أثمن قطع عجينٍ في العالم، بينما أقسم على نفسي، يومًا بعد الآخر، إنَّي لن أتناول سوى الماء.

أيقظني الصغير من غفوتي وهو يرتعد ذعرًا.. جذبني من ثيابي واعتلى المخدة فوق السرير، ليشير بيده عبر شق النافذة الأسفل.
يا إلهي، منذ متى وصغيري ينظر عبر تلك الشقوق؟!
تتصاعد ألسنة اللهب، تلتهم المنزل المُقابل لنا، بينما يقف، بالقرب، بعض الرجال ضخام الجثث. يقتربون من المنزل المشتعل خطوةً، ليعودوا للوراء بضع خطوات كلما زاد اللهيب وتصاعدت الأدخنة أكثر، ثم يعودون فيتقدمون..
خرج من وسط اللهيب فجأة شبح، تغطيه النيران بالكامل، يتلوَّى، يطوِّح بيديه في الهواء، يترنَّح بلا وجهة.. ويسقط جثةً هامدة.
تلاقت نظرات الرجال حينها بوحشيةٍ لم أرَها من قبل، وراحت خطواتهم تقترب بتوجُّس من الجثة المحترقة..

لا يخلو أي جسد منهم من كثيرٍ من الطعنات. تشي ثيابهم المُمزقة وجروحهم بمدى الوحشية التي باتت تسكن الطرقات.

لماذا كلهم ضخام الجثث هكذا؟! أين ذهب الضعفاء منهم؟!

وحدث.. حدث أن تحلَّقوا حول الجثة المحترقة، وراحوا يُشبعون جوعهم من اللحم المشوي!

ثاروا على الجوع، فقرروا وأده في مهده. لم يكُن هناك بُدٌّ من نزع الإنسانية من القلوب، والآدمية من العقول. كلُّ شيء يهون إزاء ملء هذا الفراغ اللعين الذي يئنُّ بالداخل.

دارت الدنيا بي وكدتُ أتقيَّأ، لولا التفاتهم لي جميعًا في اللحظة ذاتها! كل العيون المتوحشة تلك، تُسلِّط إليَّ سهامها عبر الشق الصغير.. يهرعون جميعًا صوب منزلنا.. تزاحموا لدى البوابة، فراح يدفع بعضهم بعضًا.

تجمدتُ مكاني، وكادت عيناي تجحظان من شدة الفزع. ماذا حدث ليعلموا بمكاننا؟ ماذا؟! احتضنتُ الصغير، ولا أدري ما أفعل..

كان مُنهارًا.. تتحرك شفتاه في محاولة لنطقٍ لا أفقهه.

جذبني ليُخرجني من غرفتنا، ليشير إلى باب الشقة برعب..

كان باب الشقة يهتز بشدة.. حتمًا يحاولون تحطيمه.

تنبهتُ حينها أن صغيري تمكَّن من سماع طرقهم على الباب، قد سمعهم بالفعل ونحن ما زلنا بالداخل.. نعم.. هم حتمًا جاؤوا إثر صيحته العالية، التي لم أسمعها أنا!

صغيري لم يرثني، ولم يرث أباه..

جذبتُه إليَّ وعدتُ إلى غرفتنا. تناولتُ الشاكوش الذي ثبَّت به زوجي الألواح الخشبية على النافذة، ورحتُ أحطِّم بكلِّ ما أملك من بقايا قوة، الألواح والنافذة.. لن أتركهم ليلتهموا ابني!

لن أدع الموت يأتي لصغيري بتلك الصورة المُفزعة.

لطالما كرهت الموت هذا، أوَيأتي اليوم ليعاقبني؟!

لم أكُن أدري أن باب الشقة قد تآمر بدوره مع الجوع والخذلان والموت؛ فتحطم.

احتضنتُ ابني، وقفزتُ به من الطابق الثالث.

شعرتُ بأظافر حادة تنشب بقدمي اليمنى وتقبض عليها، بعد أن هوى كل جسدي بالخارج، فارتطمت بشدة بجدار المنزل. انفلت صغيري من يديَّ، سقط ليتلقَّفه مسخان بالأسفل.

لم أسمع صرخة موته وهما ينهشانه حيًّا؛ تمامًا كما لم أسمع تلك التي أتت بهؤلاء الأوغاد إلينا..

فاضت روحي..

بقدر لوعتي على ابني، جذبتُ قدمي المُعلَّقة بيدهم، فسقطت.

زحفتُ إلى النيران التي ما زالت مُتأجِّجة. على الرغم من دمائي وكسوري، أسرعت..

يستحثني زوجي وصغيري.. أراهما بوضوحٍ في العُمق هناك..
يبتسمان لي..
يلفح اللهيب وجهي، فأبتسم.
يذوب جلدي ويمتزج بلحمي، فأجدني أبتسم أكثر وأندفع أكثر وأكثر..
وأخيرًا.. تحرَّرتُ..
من الجوعِ تحرَّرتُ..
من الخوفِ والذلِّ والقهرِ والهوانِ..
والموتِ..
تحرَّرتُ!

أنّاتُ مُهترِئة

«قيثارتُكَ أنا..
فلا تدع أوتاري وحيدة!».

«سِنٌّ مُناسبة..
طيب القلب..
يُقدِّس الحياة الزوجية».

هكذا كانت الكلمات تتردد بمسامعها.. لا، بل بكيانها كله. تتسلل حثيثة أحيانًا.. وصاخبة ثرثارة في أحيان أخرى.

هي نفسها الكلمات التي خطَّتها يدها بداخل إحدى المؤسسات المعروفة لاختيار شريك للحياة، منذ عدة أشهر..

لم تكُن تؤمن، طيلةَ عُمرها، بتلك المحاولات، وربما رأتها مهاترات، لا شأن لها بالجدّية. وإن حدث أن توافرَ عنصرُ الجدِّية لدى بعضها.. فسيظل خدشها للكرامة، وهتكها للآدمية، قائمَين لا محالة.

لكنها الوحدة، وحدها من ساقتها إلى هناك، مُستبدِلةً معايير الفكر والمنطق لديها.. تاركةً بداخلها بَصْمتها.. بَصْمتها فحسب!

نفضت الكلمات عن رأسها، واتجهت برتابة إلى المطبخ. أعدّت لها فنجانًا من القهوة، وضعته بأحد الأطباق، وبجانبه قطعة من الكيك، ولم تنسَ أن تضع على جانب الطبق لقيماتٍ صغيرةً من الخُبز. تناولت بيدها الأخرى زجاجةَ مياهٍ صغيرة.. واتجهت للشُّرفة لتتناول إفطارها كعادتها.

«سِنٌّ مُناسبة..

طيب القلب..

يُقدِّس الحياة الزوجية».

ما إن دلفت إلى الشُّرفة، حتى داعبتها نسمات الهواء الصباحية برقَّة، فابتسمت.

كانت الشُّرفة هي أحَبَّ الأماكن إلى قلبها في شقتها الصغيرة التي تقطنها بمفردها منذ أعوام كثيرة.. لم تعُد تتذكر عددها.

جُدرانها مُزيَّنةٌ بصور لمناظر طبيعية خلَّابة، بينما تغطِّي أرضيتَها سجادةٌ تُجسِّد صورًا لقطط كثيرة يتشاكسن بمرح. مِنضدة صغيرة وكرسي يحتلان أحد الأركان. وهناك، على الجانب الآخر.. ترى إناءين صغيرين متجاورين على سور الشرفة، بجانب الحائط.

وضعت طبقها على المنضدة، في حين التقطت أناملها لقيماتِ الخُبز، وذهبت حيث الإناءين. وضعت بأحدهما لقيمات

الخبز، وبلَّلتها بالقليل من الماء.. وسكبت ما تبقى من الماء في الإناء الآخر.

عادت برفقٍ لجلستها بجانب المنضدة، وشرعت في تناول قطعة الكيك بهدوء، كي لا تُخيف العصافير فتأتي. وبالفعل، تهافتت العصافير عبر الأشجار الكثيفة المُجاوِرة، وتناوبت إفطارها، وسط ثرثرتها الحادة اللطيفة.

«سِنٌّ مُناسبة..

طيب القلب..

يُقدِّس الحياة الزوجية».

عاودَت الابتسام حينما تذكرت المرة الأولى التي قررت فيها وضع طعام للعصافير في الشُّرفة، منذ سنوات. فأتت بإناءين متشابهين.. ملأت أحدهما بالماء، ووضعت بالآخر تلك الحبوب التي تتناولها عصافير الكناريا، وظلَّت تراقب العصافير كل يوم، ولمدة أسبوع..

وحدث ما لم تتوقعه؛ فقد كانت العصافير تأتي لتشرب الماء فقط، لكنها لم تقترب من الحبوب! حزنت في البداية، حتى هداها تفكيرها إلى أن تُبلِّل لهنَّ القليل من الخُبز. وبالفعل، تهافتت العصافير بسعادة، وتزايدت أعدادهنَّ كل يوم.. فراحت تزيد من كمية الخبز المُبلَّل لهُنَّ يومًا بعد الآخر.

نجحت زقزقة العصافير في أن تدفع عنها حاجز الصمت ورتابته، أما حاجز الوحدة فأبدًا لم تستطِع عصافير الكون إزاحته!

كان العُمر يمُرُّ بها وكأنه لا يراها.. وحين رآها.. ترك لها بعض التجاعيد حول عينيها وفمها، وأشعل الرأس شيبًا.. وواصل سيره مُتجاهلًا!

«سِنٌّ مُناسبة..

طيب القلب..

يُقدِّس الحياة الزوجية».

أنهكها تردُّد الكلمات بداخلها.. حاولتْ إسكاتَها، والهروب لزقزقة العصافير.. فلم تستطع.

هي تُدرِك يقينًا أن مَن سيأتي الآن، وقد مرَّ بها العُمر ـ وإن أتى ـ أبدًا لن يحملها بين ذراعيه.. أبدًا لن يتحيَّن الفُرَصَ ليُقبِّل يدها بشوق.. أبدًا لن يملأ الدنيا صياحًا غيرةً عليها إذا حادثت هذا، أو التفت إليها ذاك! أبدًا.. وأبدًا.. وأبدًا..

أشاحت بوجهها، لتمحو من ذاكرتها أحلامًا بالية.. فالتنصُّل من تلك الحقائق اللعين ووأدها الآن أمرٌ قد أضحى واجبًا.

يكفيها فحسب أن تُريح رأسها على كتفه بحنان.. بعد عناء العُمر. فقد أدمتها سياط الوحدة.. حتى إنه لم يتبقَّ لديها مكان لسوط! ولم يعُد لها سبيلٌ سوى التشبُّث بطيات حُلم واهن.. غير عابئة بتمزُّق خيوطه، يومًا بعد الآخر..

«سِنٌّ...

طيب...

زوجية!».

سرٌّ مكنون!

يستيقظ الصغير مُتململًا إثر أشعة الشمس الحارقة، التي غمرت الكونَ من حوله.. ينتظر نسمةَ هواءٍ عليلةً تتهادى؛ لعلَّها تجلب بعض الراحة، ولكن.. لا تبدو لديه أيُّ بادرةٍ لراحة.

يفتح عينيه الناعستين مُتلفِّتًا حوله، ليجد أمَّه بجانبه، بملامحها الهادئة دومًا، والقليل ممَّن كانوا حوله بالأمس. فيزفر الصغير في ضيق، متمتمًا:

ـ أمّاه.. قد سئمتُ تلك الشمس الحارقة!

تبتسم الأمُّ في حنان، وتمتد يداها لتحتضن صغيرها، قائلة:

ـ اقترب يا حبيبي لتنعم بظلي.

فيلتصق الصغير بها، مُستطردًا بحماسٍ طفوليٍّ:

ـ لماذا نحن هُنا دومًا يا أمِّي؟ لماذا لا نطير كالعصافير تلك، ونذهب لمكانٍ ظليل؟!

تبتسم الأم هامسة:

ـ كلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له.

ويستطرد الصغير، مُتلفِّتًا حوله بفضول:

ـ وأين مَن كانوا معنا؟ أستيقظ كل يوم لأجد بعضهم قد رحلوا! واليوم قد رحل الكثير.. إلى أين يرحلون؟ حتمًا ذهبوا إلى مكان ظليل. متى سنرحل مثلهم يا أمّي؟ متى؟

تتنهد الأم، مُشفِقةً عليه، هامسةً بحنوٍّ:

ـ لكلٍّ وقتٌ معلوم.

ـ ومتى هذا الوقت؟

فيجيبه همسُها:

ـ السِّتر مكنون!

يشيح الصغير بوجهه، مُعاودًا زفيره في ضيق، مُتمتمًا:

ـ متى سأكبر لأعي كلماتك تلك؟! متى؟!

تغمره الأم بعطفها، وتعود إلى إطراقها..

وتمرُّ الساعات تلو الساعات، ما بين زفرات ضيق وإغفاءات.. إلى أن تقرر الشمسُ انسحابها، فتتسلل نسماتٌ رقيقة تُداعب وجه الصغير، ليغيب في سُباته حتى الصباح.

ولكن هذا الصباح، لم يكُن كباقي الصباحات على الصغير..

لم تتولَّ الشمسُ الحارقةُ مُهمّةَ إيقاظه كالمُعتاد، بل كانت لطمة قوية عصفت به، بل كادت تطيح به!

انتفض الصغيرُ مذعورًا ليجد كلَّ من حوله في ذعر أكبر؛ يصرخون ويتألمون.. وتتوالى الصفعات.. فيسقط من يسقط، وينوح من ينوح.

لم يكُن الصغير يعلم حقيقة تلك الأشياء التي تُقذَف عليهم، ولا لماذا تُقذَف. كل ما استطاع إدراكه حينها أنها جدًّا صلبة.. جدًّا مؤلمة، حدّ الموت!

يتلفَّت بهلع باحثًا عن أمِّه، ليجدها صامدةً كعادتها، على الرغم من علامات الألم التي تعتصر ملامحها. هرع إليها.. لكن صفعة قوية قاسية أطاحت الأم لتلحق بمن سقطوا..

جزع الصغير وهو يُتابع سقوط أمِّه بعينين مذعورتين.. بصوتٍ قد أخرسه الحزن والألم! وقبل أن يعي ما يدور.. فاجأته لطمة قوية، أطاحته هو الآخر، ليرحل عن سكنه كالراحلين.

كانت المرة الأولى التي يعي فيها معنى السقوط.. معنى أن تفارقك أيُّ قدرةٍ على التحكّم.. أن تضحى مجذوبًا بقوة خفية.. قوة هائلة، تنتزع عنك حُريتك وخصوصيتك.. لتضُمَّك إلى ممتلكاتها، دون أدنى اتفاق مُسبَق، أو عقد مُبرَم!

لم يدرِكم من الوقت مرَّ بهذا الجذب.. لم يدرك ماهية هذا الشعور الغريب الذي تملَّكَه.. إنه، أخيرًا، مُحرَّر من قيده الذي طالما حلُمَ بالتحرُّر منه، ولكن.. لمصير مجهول!

أرسل ناظريه يتفقدان.. فإذا بالأرض تقترب بسرعة، ويخفق قلبه الصغير بسرعة أكبر. كان خفقانه مؤلمًا جدًّا.. حتى إن المسكين لم يعُد ليعرف.. أتجذبه الأرض حقًّا، أم خفقان قلبه هو من يجذبها!

وأمّه.. أين أمّه؟!

أغمض عينيه هلعًا حين اقتربتِ الأرضُ منه؛ منتظرًا لحظة النهاية.. وإذا به يرتطم بالأرض بقوة.. ليعاوده ألمه، ولكن بشكل مُضاعَف، يفوق أيَّ احتمالٍ لصغير مثله. فلم تجد آلام جسده النحيل بُدًّا سوى أن تتجمَّع لتندفع فجأةً من أعماقه الضئيلة في صرخة مدوية:

ـ أمِّي.. أين أنتِ يا أمِّي؟!

وأجهش الصغيرُ بالبُكاء، مُتلفِّتًا حوله، لعلَّه يجد أمَّه وسط هذا الضجيج..

رأى أُناسًا عمالقة، مُنهمكين في جمع المُتساقطين في أوعية كبيرة، وأخرى صغيرة، لم يرَ مثلها قط!

ومن خلف عينيه الدامعتين.. رأى سكنه الذي فارقه إثر سقوطه المؤلم.. لأول مرة في حياته، يرى كم كان سكنه عاليًا شامخًا.. تمتدُّ جذوره في الأرض بقوة، بينما تتمايل غُصونه بالأعلى هناك، محمَّلةً بالكثير من الفروع المُتزاحمة. لا.. بل كانت كذلك! فما زال هؤلاء الغُرباء عاكفين على هزِّ سكنه بقوة، وقذفه بالمزيد والمزيد.. ليتساقط ذووه أمام عينيه المُلتاعتين!

حينها.. وحينها فقط، وعى الصغير كُنهه.

وعى، للمرة الأولى، كيف قضى عمره الصغير مُعلَّقًا بفرعٍ من فروع تلك النخلة العجوز. فما كان له أن يحلم يومًا بطيران.. وما كان له أن يتخذ للرحيل قرارًا!

بحثت عيناه الدامعتان عن فرعه الذي كان يقطنه.. فإذا به خالٍ تمامًا من أي حبيب أو رفيق! اعتصر الحزنُ قلبَه الصغير، وراح صدى كلمات أمِّه يتردد بلا انقطاع:

- كلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له..

ولكلٍّ وقت معلوم..

وأمَّا السِّتر.. فمكنون!

عالم بلا رجال

«فلتقرأ فاتحتك مرتين..
أولاهما: حين اقتراني بك..
وأمَّا الأخرى، فدعني أتلُها عنك، فوق قبرك..
إن لم تكُن لي كما أحب!».

كانت السابعة والنصف صباحًا..

أسرعتُ إلى مرآتي أطالع هيئتي البسيطة، وملامحي الهادئة، التي تليق بكوني طبيبةَ أطفال، وابتسمتُ مُتناسيةً أعوامي الثلاثين التي أتممتها بالأمس؛ فلا يحق لنا، نحن الأطباء، التوقُّف كثيرًا عند تلك الأمور!

أسرعتُ كعادتي، متجهةً إلى محطة مترو الأنفاق، للذهاب لعملي بالمستشفى الحكومي. ولكن، حين تقدمت في الخُطى، شعرت وكأنَّ شيئًا غريبًا يحدث حولي، شيئًا مُريبًا..

هُيِّئ لي، لأول وهلة، أن الشوارع ليست بالزحام المعتاد ذاته كل صباح. زحام شديد، ولكن ينقصه شيء..

أكاد لا أرى سوى النساء!

وبينما أتلفَّت حولي غير مُصدِّقة، تردَّد صوت الفتيات مؤكدًا:

ـ لا يوجد رجال!

نعم، كان هذا ما رأيته بالفعل. تخلو الطرقات من الرجال! حالة غريبة من الدهشة والفرحة والاستنكار، والأصوات تكرر:

ـ اليوم بلا رجال! رحلوا وسيعودون صباح الغد.. النساء اليوم حُرَّات!

حُرَّات! أي هُراء هذا؟! بل أي جنون؟!

استوقفني زحام يتزايد أمام أحد المقاهي، حول شاشة عرض كبيرة. تؤكِّد المُذيعة، في سعادة، وبكلمات مُتلاحقة: «اليوم بالفعل بلا رجال، والعمل تطوعي، وجميع الخدمات مجانية! ولم يتم التصريح بعدُ عن أيٍّ من الهيئات أو المؤسسات المسؤولة عن التخطيط لذلك وتنفيذه. كل ما نعلمه عمَّا يدور الآن أنه حقيقي، وقد حدث بالفعل على مستوى جميع البلاد العربية والأجنبية.. على مستوى العالم أجمع!».

انطلقت الصيحات، وتقافزت الفتيات..

انتشر الخبرُ كالعدوى، فاحتشد الجميع في الطرقات.. فتيات وسيدات في مختلف الأعمار.. أقدام حافية.. شعر غير مُصفَّف.. حجاب مُلقى على الأكتاف.. نعم، كلهنّ نساء!

وبينما أقف مشدوهة، يحاصرني عقلي بمئات الأسئلة.. شرعَت الفتيات حولي في التخطيط لقضاء يومهنَّ. حينها تنبهت.. تبًّا لعقلي هذا!

راودتني رغبتي في الذهاب إلى الإسكندرية وحدي، ولكن كان يهزمني خوفي من العواقب دومًا، فأعدل عن الفكرة؛ فأنا أخشى التطفُّل والتحرُّش، أخشاهما وأمقتهما. كما تملَّكتني أيضًا رغبتي المُتمردة في السهر طوال الليل في الطرقات بحُريَّة، كما الرجال.

حسمتُ أمري، واتجهت إلى محطة المترو بخُطى تقاوم شعورًا مُلحًّا بالدوار..

ناولتني الفتاةُ تذكرة المترو، مؤكدة بمرح أعجبني:

ـ الخدمات اليوم مجانية!

أعدتُ النقود إلى حقيبتي، وشكرتها بابتسامة، في حين يُحاصرني عقلي العنيد بأسئلته: من نظَّم لكل هذا؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟ وإلى أين ذهب الرجال؟!

وبينما أتجاوز ماكينات المترو، تنبَّه عقلي لسؤال جديد، فهمس لي مُتوجسًا:

ـ كيف تم تدريب النساء على قيادة المترو؟! ومتى؟!

بدأ الإحساس بالراحة يتسلَّل إلى مشاعري المُضطربة شيئًا فشيئًا، وأنا أتلفَّت حولي بفضول، وقد غادرنا المحطة.. أعمار متفاوتة، ملامح متباينة، ولكن تجمعهنّ الإشراقة نفسها. يتجاذبن أطراف الحديث بمرح، فتهتف إحداهنّ:

ـ تُرى أين ذهبوا بالرجال اليوم؟

وتُكمل أخرى:

ـ وكيف أخذوهم؟ ومتى أعلموهم؟

وتستطرد ثالثة:

ـ وهل تم هذا بموافقتهم، أم رغمًا عنهم؟!

صمت الجميع.. إلى أن هبَّت فتاةٌ من مكانها، صائحة:

ـ حسنًا.. سأخبركن أين ذهبوا.

التفتنا إليها، فإذا بها تُغمض عينيها العسليتين في مكر، مُحاولةً إخفاء ابتسامتها، باسطة ذراعيها في الهواء، تحرِّكهما يمينًا ويسارًا، وكأنها تتحسس البصيرة! ثم تابعت بخبث:

ـ ها هم هناك، في صحراء جرداء، محاطون بقضبان عالية. على يمينهم العقارب والثعابين السَّامة، وعلى يسارهم الرمال المُتحرِّكة تناديهم! وهناك يد عملاقة، بمخالب سوداء حادة، تمتد إليهم ببطء.. تقترب.. وتقترب.. وحينما تصل إليهم، تمتد إليهم بقطعة كبيرة من الجبن الرومي!

حدَّق الجميعُ لوهلة.. ثم انفجرنا في ضحك متواصل.

لم أتعجَّب من تزاحم النساء داخل محطة القطار.. حصلتُ على تذكرة وأسرعت؛ عشر دقائق ويتحرك القطار..

ابتسمتُ للمقعد المجاور الخالي، آملةً ألَّا تنحرف بنا سائقة القطار عن القُضبان، أو أنها تُسرع قليلًا فتحتضن القطار الذي يسبقنا، أو ربما تُبطئ فنُحتضَن من الخلف؛ فهي، بلا شك، حديثة العهد بالقيادة هنا!

أخرجتُ كتابًا من حقيبتي، لم أقرأ فيه حرفًا.

ساعتان وربع الساعة تقريبًا، استغرقها القطار من القاهرة إلى الإسكندرية، غادرتُ بعدها المحطة في سعادة لا مثيل لها.

أوقفت سيارة أجرة، ليُطالعني وجه السائقة بابتسامة..

وعند البحر، كانت الفرحة تسكن المكان؛ ورد.. بالونات.. ضحكات من القلب.. حالة فريدة من الألفة والتحرُّر الوقتي، حتمًا لن تدرك لذَّتها إلا إذا كنت أنثى تحيا معنا اليوم، في عالم النساء!

تسلقتُ إحدى الصخور القريبة، وجلستُ أطالع البحر. تنهل جوارحي هواءه العذب بشغف، يناديني همس موجه أنِ انطلقي، تحرري! بينما تُداعب نسماته وجنتيَّ، متسائلةً: أحقًّا اليوم بلا رجال؟!

ربما مرَّت ساعات، لست أدري.. فلا مجال اليوم لدوران تلك العقارب البالية. لأول مرة، لا يُرهقني عقلي بالتفكير في اللحظة المقبلة، على الرغم من وجودي في مكانٍ غير المكان، وزمان يكاد يكون غير الزمان.

استسلمت لنشوتي.. فأخذتني خُطاها الرقيقة على الكورنيش، وعيناي معلَّقتان بالبحر والسماء تارة، وبقريناتي من النساء المُنطلِقات تارةً أخرى.

استدرتُ وسِرتُ بظهري للخلف، مُغمضةَ العينين. هي لحظات أعشقها؛ تكاد تتجرَّد فيها من حواسك.. أو ربما تغوص بعُمقها حدَّ التلاشي، فتسمو روحُك مُحلِّقةً..

راحت نشوتي تنمو وتعلو، ولكن فجأة، أوقفتني يدٌ على ظهري بشكل مباغت وحاد، أثار فزعي!

التفتُّ بسرعة لأجد فتاة خمرية بابتسامة واسعة، تحمل إحدى يديها وردًا أحمر، بينما تشير بالأخرى إلى الأرض، على بُعد خطوة واحدة من قدمي.

تراجعتُ مذعورة، وعيناي المحملقتان تتمنيان لو أن ما تريانه أي شيء آخر غير الحقيقة! فقد كان هناك، لا بل هنا، على بُعد عدة سنتيمترات قليلة، بالوعة مفتوحة، كنتُ على وشك السقوط فيها.

أخرستني المفاجأة حتى عن شُكر تلك الفتاة التي أرسلَتْها لي العناية الإلهية، والتي أعطتني وردةً قبل أن تغادر. بينما ما زلتُ أنا مُحملقةً في البالوعة بذهول، لا يخلو من الغثيان!

واصلتُ سيري بحرص هذه المرة.. لتقع عيناي على فتاة جميلة، تقف على بُعد خطوات، تحمل أناملها وردة مماثلة، وتُطالع البحر بنظرة ناعسة..

دنوتُ منها حائرةً، كيف أتجاذب معها أطراف الحديث؟ فإذا بها تسألني إن كنت متزوجة، فأجبت بـ«لا»، بعد أن فاجأتني مُبادرتها:

ـ لقد تزوجتُ منذ أسبوع.

قالتها على استحياء، فجزعتُ لحالها؛ هي حتمًا تشتاق إليه. فأطرقتُ صامتةً، بينما أردفَتْ وهي تتابع النظر إلى البحر:

ـ كان زواجنا تقليديًّا. ولكن، الحمد لله، هو نِعْمَ الزوج الصالح.

تملَّكتني نزعتي الشريرة، فوددت اتهامها بالبلاهة؛ فهي ما زالت في أيامها الأولى، تتجرَّع العسل شهدًا سائغًا.. لم تعلم بعدُ بما هو مُخبَّأ لها من أطنان حنظل لا ينضب!

لم أدرِ إن كانت قد قرأَتْ أفكاري، حين رمقتني هامسة:

- أعلم أنِّي ما زلتُ في أيامي الأولى معه، ولكن صدقيني، قد أصبحتُ أعشق الترابَ الذي يمشي عليه. حفظه الله لي، ورزقكِ مثله.

وغادرَت، مُخلِفةً وراءها صدى كلماتها..

لم أكُن أبدًا لأعي حقيقة هذا الشعور قبل عامين من الآن.. إلى أن داهمني حبُّك يا «عزيز».

اجتاحني طيفُك العذب بغتةً، عاصفًا بكياني. كفارس أسطوريٍّ مُحتلٍّ، سكن روحي، فاستوطنها.. لك وحدك رفعتُ راياتي، أسلمْتُ مفاتيح مدينتي، طوعًا تحت قدميك.. مُعلِنةً استسلامي اللذيذ.

نعم، أقولها ملء الفم والقلب والروح: قد عشقتُ تُرابَك.. هواءك.. شمسك.. وسماءك.. وجودك.. وغيابك. وحين أتذكر كلماتك عن العشق الإلهي، أجدني أذوب عشقًا في الله؛ فما عشقنا للأشياء سوى انعكاس لعشق خالق الأشياء، سُبحانه.

أبجدية عشق، علَّمتَني إياها؛ فكُنتَ لي ميلادًا آخر.. لم تشهده أمِّي!

آه يا «عزيز».. كم هي ذكراك حُلوة نديّة، كانت!

أفقتُ من نشوتي على صوت ضحكات لفتيات لم يتعدين المرحلة الثانوية.. كانت ضحكاتهنّ مُجلجلة، تحمل كبتًا دفينًا،

ينضج بتحدٍّ أسير.. تحدٍّ مرهون بدقات الساعة. كم أنتنّ بائسات صغيرات!

تنبهتُ للوقت حين لمحتُ بعض النساء يُصلين على الجانب الآخر من الطريق، كان العصر. ذهبتُ إليهنّ، وأديتُ صلاتي، لتخبرني معدتي بعدها أنها لم تتناول شيئًا بعدُ..

لم يكُن هناك مطعم قريب، فتوجهتُ لإحدى السيدات أسألها، فإذا بها تجيبني بضحكة عذبة طويلة، احمرَّ لها وجهها. أدركت سرَّ ضحكتها حين لملمتُ الحروف من بين شفتيها:

ـ أنا من المنصورة!

فانطلقتْ ضحكاتُنا معًا.

وبينما تأخذني خطواتي على غير هُدًى، اقتربَتْ منِّي إحدى الفتيات:

ـ أنا «مها»، أتودين مشاركتنا في لعبة الأحكام؟ قد تم الحُكم عليَّ بأن أعاكسَك كالرجال، بطريقة الثلاثينات.. أتوافقين؟

قالتها بودٍّ، فأطلقتُ ضحكةً قصيرةً علامةَ الموافقة، وانضممنا لباقي الفتيات.

سحرني بريق أعينهنّ، وابتساماتهنّ المُشرقة.. غريبة هي الفرحة؛ ماذا تفعل بنا تلك المُشاكسة؟ ألديها القدرة حقًّا على الاستبدال بملامحنا ملامح أخرى أجمل، أم أنها تأسر أعيننا، فلا تدعنا نرى سوى كل جميل؟!

أسرعت «مها» بارتداء طربوش ورقيّ، وتصلَّبت في وقفتها، مُتقدمةً نحوي بخطوات وئيدة. قدمت لي وردةً حمراء، وأردفت بصوت حاولت أن يكون أجشَّ كالرجال:

ـ نهارك سعيد يا هانم.

تناولت الوردة بابتسامة، وما إن طالعت وجهها.. حتى وجدتها مُسبلة العينين، ترفع حاجبيها بالتبادل على نحو جعلني أنفجر في الضحك، أنا وكل من حولي.

حاولتُ التماسُك لتواصل مداعبتها، فلم أستطِع، حتى تم الإعلان عن فوزها في تنفيذ الحُكم عليها وسط ضحكات الجميع.

صاحت الفتاة المُمسكة بالعلبة الورقية، التي تحوي قصاصات الأحكام:

ـ من القادمة؟

وجدتني أتقدَّم بلا تفكير لألتقط إحدى القصاصات، وأقرأ ما بها: إلقاء شعر!

صاحت الفتيات، فأردفتُ بمرح مماثل:

ـ حسنًا.. سألقي عليكنّ جزءًا من قصيدة «قطتي الشامية» للشاعر «نزار قباني».

علا التصفيق، ثم شرعتُ في الإلقاء:

«خبئني.. في خلجان يديك..
فإن الريح شمالية..
خبئني.. في أصداف البحر..
وفي الأعشاب المائية..
خبئني.. في يدك اليمنى..
خبئني.. في يدك اليسرى..
لن أطلب منك الحرية..
فيداك هما المنفى..
وهما.. أروع أشكال الحرية..
أنت السجان.. وأنت السجن..
وأنت قيودي الذهبية..
قيّدني.. يا ملكي الشرقي..
فإنّي امرأة شرقية..
تحلم بالخيل.. وبالفرسان..
وبالكلمات الشعرية».

علا التصفيقُ بحرارة أكبر، وتهافتت التعليقات والضحكات، حتى كررت الفتاة التي تحمل عُلبة الأحكام جُملتها: «من القادمة؟».

وقبل أن تتلاقى النظرات المُترددة.. دنَت سيدة، كانت تراقبنا على بُعد خطوات.

أراها في أوائل الأربعينات. شعرت بارتجافتها على الرغم من ثباتها المُصطنع، فذابت ضحكتي على شفتيَّ..

التقطت السيدةُ إحدى القصاصات، وما إن فتحتها إلا وابتسمت بتهكُّم، فاختطفت إحدى الفتيات الورقة من يدها، صائحةً:

ـ إفشاء سر!

علا الضجيج ليتبعه صمت رهيب، يكاد يقتله الفضول..

أطرقَت السيدة لحظة، قبل أن ترفع إلينا عينين دامعتين:

ـ أخون زوجي!

ألقتها كالقذيفة بصوت مبحوح. فأمسكتُ بصرخةِ فزع كادت تفلت منِّي، لكنها أفلتت بالفعل ممَّن حولي.. بينما واصلَتَ بمرارة:

ـ خمسة عشر عامًا من الإهمال والقسوة والخيانة.. تحمَّلت الذل من أجل أبنائي، عشتُ كالخادمة في بيتي، لا يجمعني بمخدومي سوى الفراش.

أردت أن ألقيه في اليَمِّ الذي طالما أغرقني فيه.. فأضحى انتقامي منه في أحضان الرجال. كنت، مع كل خطيئة، أتخيله أمامي، صاغرًا، يعوي كذئب جريح يحتضر.. فأجدني أهب المزيد من شرفه وكرامته.. وبسخاء!

أجبرها اهتزازُ جسدِها النحيل على الصمت للحظات، ثم استطردت:

ـ كدت أخبره بالأمس، فلكم انتظرتُ تلك اللحظة التي أذيقه فيها مُرَّ العذاب الذي جرَّعني إياه؛ لأثبت له أن الخيانة باستطاعتها قتل الرجال.. تمامًا كما تفعل بنا، وتكاد تمحو آدميتنا، فتصنع منَّا لا شيء! ولكن، لم أستطع التفوُّه بحرف. خشيت على أبنائي، خشيت..

هوت كالمذبوح أرضًا، وأجهشت بالبُكاء، فهرعتُ إليها أضمُّها لصدري، ليزداد نحيبها.

غادرت الفتيات بدمعهنّ، واحدة تلو الأخرى، بينما تناهى إلى مسامعي تمتمة إحداهنَّ، مُبتعدة:

ـ بهم أو من دونهم.. لا جديد تحت الشمس!

خلا المكان من سوانا، حتى العلبة الورقية أتت عليها نسائم البحر، لتنثر ما تحوي من أحكام، هنا وهناك..

شعرتُ حينها وكأنَّ للكون قضبانًا، تضيق من حولي.. حنق شديد تملكني؛ فبكيتها، وبكيت نفسي، وبكيت كل النساء.

وتساءل كياني جزعًا:

ـ أحقًّا لا جديد تحت الشمس؟!

عُدت لموج البحر شاردة الذهن، مُضطربة.. تمنيت لحظتها لو أنّي أضعني في زجاجة، وألقيني في اليَمِّ.. فلعلِّي أجد من يُجيد قراءتي، ويعيدني إليَّ!

وإذا بوقْع خطواتٍ يقترب، حتى توقفت خلفي تمامًا. استدرتُ لأواجه صاحبها، وليتني ما فعلت..

كان ممشوقًا، يرمقني بثقة وجاذبية، أربكاني. ينسدل شعره الحريري على جبينه بفتنة، مُداعبًا عينيه الكحيلتين. لم أتمكَّن من مقاومة تلك الرغبة التي تنامت بداخلي فجأة.. فدنوتُ منه كالمسحورة، أتحسس شعره وجبينه. راحت أنفاسه تلفح وجهي، مال برأسه على كتفي، فعانقته على الفور.

ولأن لحظات السعادة مُغرمة بالرحيل دومًا، فحدث أن جذبه شيءٌ ما من الخلف..

نظرتُ وراءه، فإذا بسيدة بيضاء، ممتلئة القوام، تعلو العربة.. تجذب اللجام بكلتا يديها، متسائلة بابتسامة:

ـ ما رأيكِ بجولة؟

ابتسمت بدوري، واعتليت العربة، بعد أن قبَّلت جبينه. وكانت المرة الأولى لي في ركوب "الحنتور"..

لم أتمكَّن من متابعة حديثها، فقد كانت عيناي مثبتتين على حِصاني العاشق، وخفقان قلبي لم يزَل ثائرًا إثر عناقه المُباغت. وإذا بروحي تهمس له:

ـ لو تنبَّه الرجال لوجودك اليوم بيننا.. لاحتجوا!

أوصلتني السيدة الطيبة إلى مجموعة من المطاعم القريبة..

كانت المقاهي مُكتظَّة بالفتيات والسيدات. تتصاعد أبخرة التبغ والنارجيلة.. ويتواصل السُّعال من هنا وهناك.

تناولتُ طعامي بأحد المطاعم، وفي أولى خطواتي للخارج، قابلتُ سيدةً عجوزًا تبكي ابنها البار؛ قلقًا عليه. طمأنتُها قدر استطاعتي، وصحبتُها لمنزلها المجاور. أتيت لها ببعض الطعام الذي أعدَّه لها ابنها، وغادرت هامسة في أذنها:

ـ أرجوكِ.. كوني بخيرٍ لأجله.

دارت الدنيا برأسي، وانتابني حنق بالغ. فأي عبث يحدث اليوم؟!

وعلى الرغم من كل أحاسيسي المُتناقضة، فإنِّي عُدت أسابق خطواتي لماء البحر. وقبل عبوري الطريق، مرَّت من أمامي مجموعة من الفتيات يحملن لافتات، ويرددن بمرح:

ـ لا رجال بعد اليوم!

فوجدتني أبتسم لطفولتهنّ المُتمردة رغمًا عني..

مضيتُ في طريقي، إلى أن أسدل الليلُ ستائرَه. يبدو القمر مُكتملًا مُتلألئًا، بينما ترنو النجوم بإطلالتها على استحياء؛ باحثةً عن الرجال. وقد بدا موج البحر ساحرًا ببياضه الشديد، دافعًا أمامه عتمة الليل بقوة فارسٍ لا يَهاب.

سكون خلاب، لا يتخلله سوى تناغُم موج البحر وضحكات الفتيات، التي إن خبَت كثيرًا عمَّا كانت عليه، فإنها ما زالت تتشبث بوجودها في إصرار عنيد.

ولكن، وكأنَّ ظلمة الليل قد لامست شيئًا ما بداخلي، فتملَّكني فجأة خوفٌ شديد من اللاشيء. لم أكُن بحاجة إلى وقت لمعرفة السبب؛ فكما أن السعادة تنبع من داخلنا، فالأمان أيضًا يأتينا حتمًا من المنبع نفسه..

رحل الأمان عنِّي برحيلك يا أبي؛ تاركًا إياي لبرودة الخوف، وصقيع الغياب.

ما زالت روحي أسيرة ندائك الأخير، وأنت في سكرات موتك، وعيناك المُلتاعتان تصرخان بجزع: لمن سأتركك؟ كان نداؤك محمومًا عقيمًا، وأنا البائسة المُكبَّلة بعجزي.. ماذا عساي أن أفعل، وأنا الطبيبة، أمام حقيقة الموت، وفي سطوة حضوره؟!

ألا لعنة الله على الفراق.

هويت، وأجهشت بالبُكاء..

استبدَّ بي الخوف أكثر، فدلفت إلى أحد المساجد حتى موعد القطار.

كانت الدقائق المُتبقية تكفي لعمل فنجان من القهوة، فاتجهت للكافتيريا المُلحقة بالمحطة، وشرعت في إعداد فنجاني.

بالجوار فتاتان، على إحدى الطاولات، تشربان، فيما يبدو، نبيذًا؛ حيث راحت إحداهما تهذي بصوت عالٍ:

- ومن سيعوِّضنا عن خسارتنا اليوم؟ ها؟ من؟ وكيف سنعمل من دون الرجال؟! أنصبح شواذًّ؟! ها؟ ماذا لو لم يكُن الطعام اليوم مجانيًّا؟ ها؟ أنموت جوعًا؟ ها؟ ها؟!

كان إحساسي بالحرج حينها أكبر من إحساسي بالحنق، أكبر من رغبتي في تناول القهوة، فغادرتُ مُسرعةً.

لم أشعر بحاجتي للقراءة حين العودة، فلديَّ من الشبع الإنساني اليوم ما يكاد يُغنيني عن قراءةِ مئات الكتب. حتمًا سيحكي التاريخ عن يوم اختفاء الرجال عن عالمنا، وعن غناء الفتيات في القطار الآن، ورقصهنّ الهستيري، حتمًا سيفعل.

تسلَّلت منِّي تنهيدة عميقة، وابتسمتُ لهنّ وللقدر، وشاركتهنّ الرقص والغناء..

وصل القطار إلى القاهرة في الحادية عشرة والنصف مساءً، بينما استكمل المترو رحلتي إلى المستشفى الذي أعمل به. يبدو أن حلول الليل جعلني أتفقد الوقت، وبتوتُّر.

اتجهتُ لقسم الاستقبال لأجد صديقتي «غادة» تجلس في استرخاء، وتتابع التلفاز. احتضنتني بودٍّ كعادتها، وتبادلنا كلمات قليلة قبل أن تغادر، على أن نستكمل حديثنا في الصباح.

أخبرتني المُمرضة أنه، منذ الصباح، لا يتجاوز مكوث الطبيبة بالنوبتجية أكثر من ساعة، ثم تأتي طبيبة أخرى لتنوب عنها. وكذلك فعلت الممرضات!

وكان من الطريف اليوم: إصرار الكثير من المريضات المحجوزات بالقسم الداخلي على مُغادرة المستشفى، بعد توقيع إقرار بالمسؤولية الشخصية، على أن يعُدن لمُباشرة العلاج باكرًا. فاستجابت الطبيبات، فقط، لمن تسمح حالتها الصحية بذلك.

يعرض التلفاز مظاهرات كثيرة في أنحاء مختلفة، أغلبها أجنبية، تشجب ما حدث اليوم من اختفاءٍ للرجال. كما كانت هناك اعتصامات أمام كثيرٍ من المؤسسات الدولية لحقوق الإنسان في مناطق متفرقة من العالَم.

سويعات قليلة وينتهي الأمر.. أتراه حقًّا سينتهي؟!

لم يمُر على وجودي بالمستشفى نصف الساعة، حتى قدمت د. «أميرة»، التي ستبقى حتى الصباح.

كانت الفُرصة سانحة أمامي لقضاء الليل بالطرقات كما تمنيت دومًا، لكنها بدت لي موحشةً كئيبة، ووجدتني أستنكر الفكرة بشدة؛ فماذا عساي أن أفعل في الطرقات حتى الصباح؟!

تجولتُ قليلًا.. أحاول ملء رئتيَّ بهواء لا تشاركني فيه سوى رفيقاتي من النساء..

«حسنًا يا سندريلَّا.. ها قد عُدتِ في الواحدة صباحًا، وما زلتِ تحتفظين بفردتي حذائك»! هكذا شاكستُ نفسي.

أبدلتُ ثيابي، واقفةً أمام مرآتي أتحسس شعري الطويل.. رقبتي، قرطي، وصدري. وكأنِّي أؤكِّد لنفسي أن أنوثتي ما زالت هنا، لم ترحل مع الراحلين. ابتسمتُ لنفسي وجنوني، وألقيتُ بجسدي المُتهالك على السرير.

ظللتُ أحدِّق في سقف الغرفة لبرهة، ثم اعتدلتُ جالسة، وتناولتُ أجندتي الخاصة بجانب السرير، تلك التي أدوِّن بها يومياتي..

ـ كان يومًا بلا رجال..

يومًا غريبًا، لكنه جميل!

أين ذهبتم يا تُرى؟!

وهل ستعودون في الصباح حقًّا؟!

بشوق ننتظركم..

فوجودنا لا يكتمل إلا بكم، وكذلك أنتم..

شئنا.. أم أبيتم!

ابتسمتُ لكلماتي، واستلقيتُ ثانيةً مُغمضة العينين. عليَّ النوم؛ فالعمل في الصباح الباكر، ولدينا مُدير مُثقل بالعقد النفسية! وما إن لاحت ذكرى المدير، حتى تخيلته وهو يتناول المزيد من الجبن الرومي من اليد العملاقة.. ثم تبتلعه الرمال المتحركة، فننتهي من أمره.

اتسعت ابتسامتي..

وامتدَّت أناملي لتطفئ نور الغرفة من زرٍّ خاصٍّ بجانب السرير، وغبتُ في سُبات عميق.. سُبات، شاركتني في نشوته كل النساء..

ـ طبتُنّ مساءً، نساء الكون.

تُرى.. كيف كان يومك يا «عزيز».

القتل الرحيم

«دعني أغفُ قليلًا في سُباتك..
فمن دونك..
لا أحلام لي!».

لكلٍّ منَّا وقتٌ، يتعيَّن عليه فيه البُكاء..

ولكن، حين يبكي الرجال.. حتمًا يكون للألم مدى أرحب، ومذاق أمرّ!

داخل غرفة الرعاية المُركزة، بأحد المستشفيات الخاصة.. وقف «أحمد» بقامته الممشوقة، وبشرته البيضاء، وشعره الأسود الطويل، يُذرف الدمع في صمت، وقد ابتلَّت لحيته.

تتشبَّث عيناه في رجاء لا ينقطع، بحبيبته ورفيقة عمره «منى»، الراقدة على فراشها الأبيض بلا حِراك، سابحة في غيبوبتها العميقة.. وجه شاحب، وملامح دقيقة، لا تكاد تلمح

فيها أي علامات للحياة. أيام وشهور طوال.. فقد فيها إحساسَه بالزمان وبالمكان. وما الزمان وما المكان سواها؟!

رمق، بيأسٍ، تلك الأسلاك والأنابيب المُمتدة.. أجهزة صمّاء، تهبها حياةً مؤقتة زائفة.

يكاد المسكين لا يعي ما أملاه عليه الأطباء المُعالجون لها منذ لحظات.. فعليه، اليوم، اتخاذ قرار فصلِها عن الأجهزة، لتركها تغيب عن عالمنا بسلام؛ فلا أمل في استعادة وعيها.. وذاك هو «القتل الرحيم».

زُلزِل كيانه.. فراح يصرخ فيهم:

ـ رحيم! عن أي رحمة تتحدثون؟! وماذا تعرفون أنتم عن الرحمة أيُّها القَتَلة؟! أوَلا تعلمون مَن تكون «منى»؟ أنتم حتمًا لا تعلمون!

زاد نحيبه، واهتزَّ جسده بشدة إثر بكائه المرير، هذا الذي لم ينقطع للحظة، منذ أن تركته «منى» لترقد في هذه الغرفة العقيم. وراحت ذكرياته معها تتلاحق وتتدافع كشريط السينما، في إصرار وعناد غريبين، وكأنها تهزأ به..

فها هو يراها ليلة زفافهما، في ثوبها الأبيض.. تذكَّر حين ضمَّها لصدره لأول مرة، غير مُصدقٍ أنها بالفعل هنا، بين ذراعيه! كان، حتى هذه اللحظة، في حيرة شديدة من أمره.

أحقًّا عَلِم العشقُ أخيرًا بوجوده في الحياة، فأهداه «منى» لتُحيي نبضَه بحبها؟

أحقًّا كان للدفء وجود.. وللحُب وجود.. وللعشق وجود؟!

ذابا في عناقهما.. فما أجمل أن تذوب في حِضن الحبيب! ما أروعه هاك التلامُس الساحر، الذي يُذيب ثناياك.. يُفقدك كل شيء.. ليعود فيهبك كل الأشياء! تلاحُم عميق، تندمج فيه روحا عشيقين، لتولد روحاهما من جديد فتصيران روحًا واحدة، تتمخَّض من حبهما اللامُتناهي.. لتنمو وتزهر في رحاب جنة العشق.

تذكّر «أحمد» حين أبعدها عن حِضنه برفق، ليتعبَّد في محراب عينيها.. متأملًا ملامحها الرقيقة، وشعرها الحريري المُنسدِل على كتفيها في سكون واستسلام.. منتظرًا هو الآخر أن يعي حقيقة تلك اللحظة التي يحياها.. أحقيقة هي، أم خيال تسرَّب إليهما من اللاوعي، ليحيا بهما في وجود آخر.. وليذيقهما طعمًا مختلفًا للحياة، لا يعرفانه، ولو للحظات؟

امتدت أنامله حينها، مُرتجفةً، تتحسس شعرها المُنساب.. تطمئنه بأنه بالفعل هنا.. وسيظل هنا.. ما بقي قلب، وما بقيت حياة.

أذرفت «منى» الدمع لحظتها من فرط سعادتها، فأسرع باحتضانها ثانيةً.. بقوة الحرير، ورقة العبير.. حملها كالفراشة بين يديه، كما كانت تحلم، وراح يدور بها في واحة جنتهما الصغيرة. يدور ويدور.. حتى رحل الدمع، وهدأ القلب.. وزيَّنت البسمة الشفاه. حينها، أنزلها برفق كزهرة بريَّة، يخشى أن تجرحها أنامله،

ليعود فيتطلع إلى عينيها الدافئتين في حنان.. مُداعبًا أذنها ببعض الكلمات، تورَّد وجهُها لها حياءً وحبًّا.. ضمَّها إليه أكثر، وطبع على شفتيها قُبلة الحياة.. قُبلة أعادت لهما حيرتهما الأولى عن ماهية تلك اللحظة.. أحقيقة هي، أم خيال؟!

بكى «أحمد»..

بكى الحبيب..

بكى العاشق..

بكى بكاء طفل ينتزعونه من حِضن أمِّه، ليلقوا به وحيدًا في غَيابات جُبٍّ سحيق..

بكى حرمانَه من حنانها، وحِضنها، ورقة قلبها، واحتوائها..

عاد وتذكَّر كيف كان يُلقي بنفسه بين ذراعيها، على صدرها.. فكيف لها أن ترحل وتتركه خاويًا، مُتجردًا من تفاصيلها ورحمة قُربها؟!

يا إلهي! حتى الرحمة جعلوها قاتلة! ألبسوها ثيابًا غير الثياب.. ولقبوها بـ«القتل الرحيم»! فعن أيِّ رحمةٍ يتحدث هؤلاء المرضى؟!

تتشبَّث عيناه ثانيةً بتلك الأنابيب اللعين، وتطنُّ بأذنيه كلمات هؤلاء الأوغاد، ورغبتهم في نزعها.. أوَينزع بيديه هاك الوهم الكاذب الذي يُبقيها بالجوار، ليواريها بيديه تحت الثرى؟!

علا نحيبه بشكل هستيري، وبلّل الدمعُ ثيابَه، بل والأرض من بين قدميه المُرتعدتين خوفًا وقهرًا. يتملَّك الألمُ قلبَه وصدرَه،

فتتشعَّب فروعه حادة الأنصال لتأتي على كل ذرَّة في كيانه المُلتاع. يلتحفه الفراغ أخيرًا والخذلان، مواسيين، ويدوي صوت ارتطام بالغُرفة..

دخل مُسرعًا الطبيب المُناوب والمُمرضة.. ليجدا «أحمد» مُلقًى على الأرض، بلا حراك. هرع إليه الطبيب، يتفحصه.. فإذا به قد فارق الحياة!

أطرق الطبيبُ للحظة، وبحركة آلية، نزع الأسلاك عن «منى». أغلق الأجهزة، وانصرف. تاركًا وراءه الممرضة مُحملقة بجسد «أحمد» المُسجى أرضًا. وينهمر دمعها ليحتضن دمعه..

فلكم تمنَّت زوجًا عاشقًا مثله!

ألزهايمر

«ينتهي الصبر..
ينفد كما الأشياء بمرور الوقت..
كاذبٌ من يرى غير ذلك، مُخطئ من يستنكف، متوهِّم من يستنكر.
أو لعلّه.. لم يمُر بعدُ بما يستحق نفاد الصبر»!

ـ لا أستوعب سببَ رفضِك ارتباطنا.. تعلمين أنِّي أحبك، وكم أنا جاد في الزواج منك.
سأنتظر ردَّكِ النهائي بالغد، ولن أحادثك في هذا الموضوع ثانيةً.

قالها «آسر» بحزم لا يخلو من عصبية.. زميلي بالعمل، الذي يُنهي أوراق سفره ليلتحِق بالعمل مديرًا فنيًّا بفرع شركتنا في دبي، بعد أن أثبت كفاءته في العمل لدينا في فترة وجيزة.

قالها بالأمس، ولم أذهب للعمل اليوم!

فحينما تنزوي بداخلك وسط الجموع، حين يتلاقى المد والجزر لديك.. تتساوى الأقوال والأفعال، يزول الفارق بين من يرحل ومن يبقى بالجوار.

فحديثُ نفسك، أبدًا، لن يسمعه سواك.

وقفتُ أطالع أمِّي الراقدة على السرير بلا حراك، أراقبُ يومًا بعد الآخر ما يفعله بها مرضُها اللعين هذا.. وكأنَّه ينهش عنها سنوات عمرها، ويلقي بها على عاتقي؛ فيحيلها طفلة، بينما أموت أنا في اليوم عشرات المرات..

يعلم هذا اللعين كيف يقتلع جذور الصبر لديَّ من مَنْبَتِها.. لأقف أمامه مكتوفة اليدين، مُطأطئة الرأس، يملؤني القنوط من كل شيء!

ذهبتُ أحرِّك أمِّي في السرير برفق، خوفًا عليها من قُرَح الفراش؛ تلك القرح المتمردة التي تأكل الجلد وتلتهم اللحمَ وصولًا إلى العظم، وتدافع عن وجودها بكل استماتةٍ وقِحة.. ثم قصدتُ المطبخ لإعداد طعام ليِّن لأمِّي، متناسيةً كلمات «آسر»، وحُب «آسر»، وفراقه القريبً.

تشعبَت وحدتي بداخلي وتشابكت، حتى إنها لم تدَع مكانًا لموطئ قدم. فيطرق قلبي مَن يطرق، يرحل مَن يرحل؛ أضحت سواءً!

بيتٌ غير مسكون أنا، مُتهدِّم الجدران، بلا أثاث، يملؤه فراغ بارد لا ينتهي. لا يعي مِن الأصوات سوى دفق أنَّات روحي

المُتعَبة؛ تزوره أحيانًا، تتلوَّى على لهيب حرمانها المُتقد.. وتخبو أحيانًا أخرى.

يُطرَق بابُ الشقة، فأنتفض مذعورة. كان «آسر» أول من جاء بمخيلتي! أمِن الممكن أن يحصل على عنوان سكني من العمل، ويأتي إلى هنا؟!

فتحتُ الباب بيدٍ مرتعدة، ما لبثَت أن هدأَت حين طالعتُ وجه «ملك»، فتاتي المُدللة بنت الجيران. احتضنتني بسعادة، وأعطتني دعوة حفل خطوبتها، هاتفة:

ـ سأنتظركِ كما وعدتِني..

قبَّلتها بين عينيها كما اعتدتُ منذ صغرها، متمتمة:

ـ إن شاء الله حبيبتي.

غادرَت، ووقفتُ خلف الباب أطالع البطاقة.. تذكرت «ملك» وهي تقبض على إصبعي وهي حديثة الولادة، كي تُبقيني بالجوار.. ابتسمتُ، اعتدلتُ في شرنقتي، وأخبرتني أنِّي بخير.

فقد علَّمتني الحياة أنه كلما تقدَّم بك العُمر أكثر، صرتَ أكثر تمسُّكًا بانفرادك وحريتك الكاذبة.. تتعرَّى أمامك حقيقة الأشياء وتتضاءل؛ تراها بمنظور مخروطي خاص بك وحدك، فتدرك متى وكيف تغمض عينيك وتسد أذنيك عمَّا تريد.. وكيف تتأرجح بنشوة عقيم بين دفتي السكون داخلك واللاشعور.

ذهبتُ لأساعد أمِّي على الجلوس بالكاد.. ترمقني بنظرات حائرة، تتخبَّط في محاجرها، لا يطيب لها المقام ولو للحظة،

تغمض عينيها لبرهة، قبل أن تعود لتتسع فجأة، كهاربٍ من كابوس بشع، تنظر نحوي مُتلمسة طوق نجاة، تحاول النطق باسمي، فتخونها الذاكرة، تتلعثم الشفتان، وتأبى الحروف، فتعود لشرودها، وأهوي أنا بجانبها مُستسلمة، أتوق لدفء عناقها القديم.

رُحتُ أُطعمها بملعقة الأطفال، رويدًا رويدًا، أجاهد في كل مرة وأنا أُذكِّرها بأنَّ في فمها طعامًا، وعليها أن تلوك وتبتلع.. قضيتُ ساعات طويلة حتى انتهيت من الطبق الصغير الذي بيدي.. ثم شرعت في تكسير الأقراص إلى قطع صغيرة؛ كي تتمكن من بلعها.. ومع آخر قطعة، تقيَّأَتْ كلَّ شيء كعادتها.. لأعيد الكَرَّة من جديد!

نطقَت أخيرًا، ولكن بكلمات غير مترابطة؛ هي تلك الهلاوس اللعين، التي أقف أمامها عاجزة، لا أعرف ماذا أفعل.. أأسترسل في الحديث معها، أم أغيِّر دفة الحوار كي آتي بآخر؟! دفعني يأسي في النهاية إلى ابتلاع غُصة قلبي، والصمت.

فمن عساه يدرك أن عُمري يبدأ وينتهي على حافة السرير هنا؟!

قمتُ بتنظيف فضلاتها، وتعطير الفراش، وتركتُها لتنام، بينما علا فجأة رنينُ هاتفي المحمول بالخارج..

غادرتُ غرفةَ أمِّي مُسرعةً، لأجد على شاشة الهاتف أحبَّ الأسماء إلى قلبي وروحي: «آسر»!

ترقرق الدمعُ بعينيَّ.. انتهى الرنين.. ويعاود.. وينتهي.. ويعاود.. وأبكي وأبكي.

امتدَّت يدي في النهاية لتغلق الهاتف. نفضت كل شيء عن رأسي، وهرعت مكتومة الأنفاس؛ لأراقب شهيق أمِّي وزفيرها، بينما تغُط في سُباتها العميق، فأتنفَّس بدوري، وتفلت منِّي تنهيدة حين أطمئن أنها لم تزل على قيد الحياة..

حياة..

ما أقسى أن يُختزَل معنى الحياة لديك في شهيق وزفير!

هشاشةُ روح

تغرُب أرواحنا مع الشمس..
تأفِل كالقمر..
تتساقط كأوراق الخريف..
تتعثَّر كطفلٍ يحبو، وتهرول بنا كالزمن..
لم أدرك مدى هشاشة روحي إلَّا في هذا اليوم..

كان يومًا حارًّا، أتنفس فيه بالكاد من تحت نقابي. لا تُسعِف مروحةُ السقفِ هذه مع ازدحام العيادة بالأنفاس، ودرجة الرطوبة العالية التي لا يُجدي معها شيء.

- رقم «٦٧»..

تُنادي المُمرضة بصوتٍ عالٍ..

فتتقدم سيدة، تتبعها أخرى بيدها طفل يكاد يكون في الثالثة من عمره، بينما أتنهَّد بإرهاق، مُتسائلة:

- فاضل كام كشف؟

فتجيبني الممرضة بنفاد صبر:

ـ أكتر من عشرين، ولسه بيقطعوا في شباك التذاكر.

وقف أمامي السيدتان والطفل الصغير، بينما أكملت الممرضة حديثها، مُخاطبة السيدتين:

ـ من فضلكم واحدة بس مع الطفل، والتانية تتفضل تستنَّى برّه..

ـ ليه؟ ما كل الناس بتدخل، هي جت علينا وهتعملوا نظام؟ هي مش عيادة خاصة يعني!

تدخَّلتُ في الكلام، موضحةً:

ـ يا جماعة من فضلكم دا نظام العيادة؛ الكشف بيدخل معاه واحد بس. يلَّا بعد إذنكم علشان نخلَّص، انتو شايفين الزحمة.

دفعت إحداهما الأخرى في كتفها، وغادرت العيادة، صائحة:

ـ خليكي انتي، لما نشوف آخرتها!

وبعدما انتهيت من الكشف على الصغير، شرعتُ أكتب العلاج على ورقة صغيرة، وأنا أشرح للأمِّ كيفية استخدامه..

ـ إيه دا؟ هو كل العلاج من برّه؟!

ـ آه للأسف، معلش، مفيش علاج في الوحدة.

ـ هو كل مرة مفيش علاج مفيش علاج؟! ما العلاج مالي الصيدلية أهو، اكتبيلنا حاجة من هنا.

ـ لستة الأدوية قدامي حضرتك، وعلاج الأطفال خلصان من الشهر اللي فات.

ضربت بيدها على المكتب، صائحة:

ـ اكتبي علاج من هنا، أُمَّال إحنا جايين ليه وقاطعين التذكرة بجنيه؟

«جنيه»! إنه هذا الجنيه اللعين، الذي يستبيحون به كرامتنا في الوحدة الصحية كل يوم!

أبعدتُ النقاب عن وجهي قليلًا، لأتنفَّس بعمق، مُستجدية بقايا صبر، هاتفة:

ـ حضرتك بتقطعي التذكرة بجنيه مقابل الكشف على ابنك. لو فيه علاج هنا بنكتبه، ولو مفيش بتشتريه من برّه.

دفعت حينها المرأة الثانية الباب من الخارج، بينما تستطرد الممرضة:

ـ هي الدكتورة هتجيبلك علاج منين؟ دي مشكلة الوزارة اللي مش بتبعت علاج كفاية. العلاج خلص، إحنا ذنبنا إيه؟!

تدخلَت المرأة الأخرى، وعلا الصياح بسباب وشتائم لا حصر لها ولا رادع.. وكأنهما مقررتان علينا، وبصفة يومية، في تلك المنطقة العشوائية.

فمعظمهم هنا، إن لم يكُن كلهم، بداخله شبه يقين أننا نستحوذ على الأدوية لأنفسنا، ولمن نصطفي فقط من معارفنا!

غريبة هي العاصمة..

قضيتُ حياتي في قريتي الصغيرة بمحافظة الشرقية، ولم يحدث يومًا أن تطاول الناس على الأطباء بهذه الصورة المُهينة؛ فللطبيب لدينا مكانته واحترامه.

لو علِم أبي بما يحدث لي هنا، لبكى دمًا على سنوات عمري التي أهدرتها، ولبكيت في حِضنه على عمره الذي أفناه من أجلي.

بالكاد هدأ الضجيج، فلا أمن هنا، ليدخل الكشف رقم «٦٨»..

تترك السيدة طفلها جانبًا، لتربت على كتفي، مُعتذِرةً:

ـ معلش يا دكتورة.. معلش!

غادرتُ الوحدة بعد أن أنهيت عملي في الواحدة بعد الظهر؛ فصغيري لم يتم العامين بعدُ، وما زلتُ أحظى بالانصراف مُبكرًا ساعة عن المواعيد الرسمية. شهر واحد، ويكمل صغيري العامين.

وبينما أنا في طريقي للبوابة الخارجية، هاتفتُ مسؤولةَ الحضانة التي بها ابني، لأطمئنَّ عليه، ولأخبرها بأنِّي في الطريق إليها..

فلا أحد لنا هنا.

جئتُ أنا وزوجي الطبيب لاستكمال دراستنا وحياتنا؛ فهو يعمل نائبًا مقيمًا بمستشفى رمد كبير، بينما ما زلتُ أنا طبيبةَ تكليف، تسلَّمت عملي في هذه الوحدة الصحية، وها أنا ذا في انتظار حركة النيابات المقبلة، لاستكمال دراستي.

وعند البوابة..

انشقَّت الأرضُ فجأةً عن المرأتين اللتين تشاجرتا معي في العيادة.

صرخت إحداهما:

ـ أهي، امسكيها بسرعة..

هجمت عليَّ الأخرى، صائحة:

ـ والله لأوريكي، وهقلَّعك النقاب دا.

لم تمُر ثانية، إلا وأنا مطروحة أرضًا، تنهال فوقي السيدتان بالضرب المُبرح في كل أنحاء جسدي، بينما تتشبث يداي بالنقاب..

يالانكسار الروح..

يالضعفي وهشاشتي..

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا في قسم الشرطة؛ حيث يتم تحرير محضر.

تقف ممرضتان بالوحدة التي أعمل بها، تحمل إحداهما حقيبة يدي، بينما يتحدث مديري بالعمل في هاتفه المحمول بانفعال واضح.. وأنا بينهم، يحتل الغبار سواد ثوبي، كما احتل الهوان عقلي وقلبي.

أنهى مديري مكالمته، هاتفًا وقد احمرَّ وجهه:

ـ الإدارة الطبية بتقول إن طالما الاعتداء تم على الطبيب خارج حدود العمل، وبعد انتهاء ساعات عمله الرسمية.. فهي مش مسؤولة عن اللي حصل، ولا عن الدفاع عنه!

هتفَت حينها إحدى السيدتين اللتين اعتديا عليَّ بالضرب، واللتين تقفان بالجانب الآخر من الحجرة:

ـ يا باشا إحنا عاوزين نعمل «محضر ضد»، هما بيفتروا علينا.. هما اللي ضربونا وبهدلونا في الأول، إحنا يا دوب كنا بندافع عن نفسنا.. ومعانا الشهود ولا مؤاخذة...

قاطعتها الأخرى مؤكدة:

ـ آه يا باشا، الشهود موجودين.

في اللحظة نفسها..

دخل زوجي جزعًا. لا أعلم مَن أخبره، ولا كيف أخذوا منِّي رقم هاتفه المحمول ليأتوا به..

لم أرتمِ بحضنه؛ فروحي دومًا هي من تفعل.. وأراها فارقتني!

غرباء نحن يا عزيزي في بلدنا هذا..
غرباء في مهنتنا..
زوجتك وبنت عمِّك الطبيبة، مُستباحةً كانت تحت الأقدام..
لم يشفع لها علمُها ولا حياؤها.. ولا نقابُها!
غرباء نحن يا حبيبي..
عن أنفسنا غرباء!
نتخبَّط في الحياة؛ بحثًا عن مرفأ نجاة.. ولا نعي أن جميع المرافئ مُغلقة، لا يستجير بها سوى الأموات.

أحملقُ في الأرض طيلة الوقت بعينين متحجرتين، لا تبكيان. تخرس العيون كما تخرس الكلمات..
تدور الدنيا من حولي، وتدور.. تتوقَّف على وجه صغيري الذي لم يزل في الحضانة وحيدًا.. ثم تعود لتدور.. وكأنِّي داخل كابوس بشع يعبث بي، لا ينوي أن يترك لي أي فرصة للخلاص.
طالت لحظة الصمت، ما دفعني للملمة عينيَّ الزائغتين، لأواجه بهما كل معاني الأسف في أعينهم جميعًا..
غادر محامي النقابة الغرفة، وتبعه زوجي بخُطى كسيرٍ.. لكم أُشفق على خذلانه أمامي!
ـ أنا آسف جدًّا يا دكتورة على اللي حصل دا.. آسف جدًّا.

نطق بها أخيرًا وكيل النيابة. كان شابًّا وقورًا، تهرب عيناه من مواجهتي..

- بس حضرتك تعرفي معنى «محضر الضد» اللي البلطجية دول عملوه؟ معناه إنك هتباتي معانا هنا في الحجز، زيهم بالظبط. للأسف هما عارفين بيعملوا إيه كويس.. عارفين آخرتها إيه، وبيتصرفوا على الأساس دا.

حملقتُ فيه بنظرات ضائعة، وقد أدركتُ ما ترمي إليه كلماته.

- الناس دي مش هتسكت، وأذيتهم ليكي مش هتقف عند الحد دا..

استنكرتُ في نفسي نبرة التهديد التي بدت لي.. فأطرقت بلا حرف، فأي حروف تجدي بعد هذا الضياع كله؟!

كان يحاول انتزاع الكلمات هو الآخر، وكأنها تأبى أن يُلفَظ بها، رغمًا عنها وعن العقل والمنطق والإنسانية..

غادر مكتبه، وجلس على المقعد المقابل لي، قائلًا:

- كلامي معاكي دا بشكل شخصي جدًّا.. حضرتك ليكي طبعًا كل الحق في إنك تكملي وترفعي عليهم قضية. لكن صدقيني، أنا خطيبتي دكتورة، ولو كانت هي اللي في موقفك دا، كنت أنا بنفسي اللي هخليها تتنازل، عمري ما كنت هسمحلها إنها تدخل قسم شرطة وتتبهدل بالشكل دا.

هاجمتني حينها تلك النظرة المُرتعدة التي رمقني بها ساعي قسم الشرطة، قبل مغادرتنا للتوجُّه للنيابة هنا.. حين همس لي بكلماته خيفةً:

- انتي شكلك بنت ناس ومحترمة، إيه اللي وقعك مع البلطجية دول؟! دي ناس قادرة وواصلة؛ لسه متهمين جارهم إنه ولَّع في البيت بتاعهم، وجابوا شهود زور ولبِّسوه قضية!

وانهمر دمعي..

لا أشعر بنسيم الليل..

لا أصدِّق أن هذا الكابوس البشع قد لفظني منه أخيرًا.. ولكن، بلا روح..

تركني زوجي في سيارة الأجرة، وهرع إلى صغيرنا الجالس أرضًا على سلم الحضانة، بجانب العاملة.

شكرها زوجي وأعطاها ورقة نقدية، وعاد مُمسكًا بيد الصغير..

كان مُنكَّس الرأس والروح، عيناه متورمتان من أثر البكاء. لم يحمله أبوه كعادته، كما لم أحتضنه كعادتي حين دلف إلى السيارة.

جلس بيننا صامتًا، بكل اللوم والحزن يرمقنا بطرف عينيه.. بينما أجلس أنا منكمشة، أغمض عيني عنه كي لا أراه.. فيراه قلبي اللعين.

قطع صمتَنا ألمٌ أكبر، حين أجهش الصغير بالبكاء فجأة، مُتشبثًا بذراع أبيه، راجيًا بكلماته المتقطعة:

ـ بابا.. عاوز.. أروح.. شرقية..

ليلة الخميس

إنها ليلة الخميس يا سادة..

هكذا يُقال عنها «مجازًا»، وإنما هي حقيقةً «ليلة الجمعة»؛ فاليوم الخميس وغدًا الجمعة!

لستُ أدري مِن أين جاءت هذه التسمية الخاطئة، ولا يهمني كثيرًا أن أعرف؛ فأنا ضمن زمرة شعبنا العظيم الذي يرى أنها «ليلة إبليس».

ـ مشروبك المُفضَّل يا أستاذ «زكي»، ربنا ما يقطع لك عادة.

قالها البائع بابتسامة خبيثة..

تناولتُ الزجاجة من بين يديه، بعد أن وضعها في كيس بلاستيكي أسود اللون، وغادرته مُنتشيًا، دون أن أعقِّب على تلميحه الصريح.

هو جارنا ثقيل الظل، لا أميل للحديث معه على أيِّ حال.

كان الشارع يموج بالحركة، على الرغم من أن الساعة قد تعدَّت الحادية عشرة مساءً.

سِرتُ أترنَّح من شدة الإرهاق، عائدًا من عملي الثاني، الذي من المُفترض أن ينتهي بعد منتصف الليل؛ ولكن لليلةِ الخميس قوانين أخرى يتوجَّب علينا مراعاتها بدقة، وإلا اختلَّت موازين الكون. فشرعت أدندن بصوتٍ عالٍ، غير ملتفتٍ لغمز المارة ولمزهم من حولي:

ـ ليلة الخميس.. تيرا..

ليلة الخميس.. تيرارا..

صعدت إلى الطابق الرابع بحماسٍ شديد، على الرغم من تعب الأسبوع الذي اجتمع عليَّ ليمزِّق ظهري وأوصالي.

أدرتُ المفتاح، بينما أحتضن زجاجتي بيدي اليُسرى، وأنا أُصدر صفيرًا مُتصلًا..

ظلام.. هدوء.. هدوء..

تنفست الصُّعَداء ما إن دلفت، وقد تملَّكني ابتهاج غير عادي، فرُحت أقفز كالأطفال على إحدى قدميَّ بالتبادُل مع الأخرى، أركل فردة حذاء هنا، والأخرى هناك، صائحًا:

ـ ليلة الخميس.. تيرا..

ليلة الخميس.. تيرارا..

أغلقتُ باب الشقة بقدمي، وأسرعت إلى الثلاجة؛ حيث أخرجتُ زجاجتي الحبيبة من الكيس البلاستيكي، ووضعتُها في المُجمِّد، بعد أن قبَّلتها قُبلتين عميقتين، كان لهما وقع السحر على شفتيَّ.

أنرتُ أضواءَ الشقةِ بالكامل متعمِّدًا، وبعدها أدرتُ التلفازَ ومروحتَي الصالة وغرفة النوم، وفتحت كل النوافذ، ثم وقفت أمام دولاب الملابس أتحسس بطني المنفوخ، مُنتشيًا بإحساس الامتلاء، بعد أن التهمتُ نصف فرخة مشوية وطبقين من الأرز والسلاطة والطحينة وثلاثة أرغفة من الخُبز، وأنا في طريق عودتي، أتبعتها بالشاي والشيشة العنب على قهوة «عنب» لزوم الليلة العنب.

دسستُ يدي بداخل الدولاب، في رُكن خاص أعلى اليمين، لتخرج فرِحةً مُمسكةً بالفانلة الحمراء والشورت ذي القلوب الحمراء.

لمعت عيناي بنشوة، وذهبتُ للاستحمام.

انفرجت أساريري أكثر حين أتاني صوتُ المُذيعة بالتلفاز، وهي تهتف باحترام بالغ:

ـ أهلًا ومرحبًا بكم في «النشرة الأسبوعية»، ونبدؤها بالعناوين.

آه.. إنها تلك النشرة حديثة العهد، قد أدمنتُ متابعتها؛ حيث تقوم كل أسبوع بعرض الأخبار الداخلية للبلد فحسب، فلا طاقة

لي على الأخبار الخارجية.. «كفانا ما بالداخل»؛ أكررها دومًا وسأظل.

ـ ليلة الخميس.. تيرا..

آه يا ليلة إبليس.. تيرارا..

تيرارارارارا.. تيرا..

تييراتيراتيرارا.. تيرارا..

جلستُ على الأريكة أمام التلفاز، بعد أن أحضرت زجاجتي من الثلاجة، رافعًا قدمي على المنضدة المقابلة، واسترخَت كل خلية في جسدي، بينما أتجرَّع مشروبي المُفضَّل مُستمتعًا بنشوة..

مصمصت ما بين شفتيَّ، وهرشت صلعتي وأنا أتأمل هذه المُذيعة بجديتها الصارمة تلك، وتخيلتها وهي في حضن زوجها الليلة بعد عودتها للمنزل، أتُراها ستكون معه بتلك الدرجة من الجدية؟!

ضحكتُ، ورفعتُ الزجاجة لأتجرَّع أكثر من نصفها دفعةً واحدة..

ـ وعلى الصعيد القروي، و.. مع تفاقم أزمة المشروبات الغازية، وإدخال نكهات جديدة عليها.. ننتقل لقرية «كدا كفاية» بمحافظة «مستسلمون»، وتحديدًا على مقهى «والله زمان»؛ حيث قام المواطن «سويلم سلَّام أبو مسلَّم» بتدمير المقهى بالكامل، مع الاعتداء بالضرب المُبرِح على المواطن «سعفان سعفان سعفان»؛ صاحب

المقهى، واتهامه بإخفاء مشروب «المرار الطافح» عنه، بعدما اعتاد على احتسائه يوميًّا لسنوات مُتتالية. و.. قال مؤكدًا أمام النيابة إنه لن يُمكنه استبدال أي مشروب آخر به؛ إذ لا يقوى على تحمُّل أعراض الانسحاب من جسده.

وكشفت التحقيقات عن أن المجني عليه «سعفان»، صاحب المقهى، لم يكُن لديه بالفعل أي زجاجات من هذا المشروب محل النزاع.

و.. إنهاءً للموقف؛ فقد تم اعتقال كل من «سويلم سلَّام أبو مسلَّم» وعائلته، والمواطن «سعفان سعفان سعفان» وعائلته، وكل من كشفت التحقيقات عن ارتياده ذلك المقهى من أبناء القرية، وكذا من القُرى المجاورة.

كما صدرت الأوامر بغلق المقهى نهائيًّا.. و.. إعادة الانتخابات.

نظرتُ ببلاهة اعتدتها الفترة الأخيرة، للمشروب الذي بيدي، متأملًا اسمه «المرار الطافح»:

- غريب «سويلم» دا والله! ما كان ييجي يشتري من عندنا الأزايز اللي هو عاوزها، ويخزِّن منها كمان، بدل ما يضيَّع نفسه كدا بحمورية!

هذه ميزة أن تحيا في العاصمة؛ فلدينا من «المرار» ما يكفي كل القُرى ويزيد.

رفعتُ الزجاجة وجرعتُ ما تبقَّى منها، مُتابعًا النشرة..

- وأمَّا عن حالة الطقس، فتعلن هيئة الأرصاد عن استمرار الموجة الحارة، كما هو مُعتاد دومًا في هذا الوقت من العام، وتنصح بشُرب كميات كبيرة من المياه، خاصةً للأطفال وكبار السن، وعدم الخروج وقت الظهيرة.

وحرصًا من الدولة على سلامة المواطنين، و.. تحسُّبًا لهبوب أي عواصف ترابية ثلجية شمالية جنوبية مُفاجئة، فقد تم فرض حظر التجوال ابتداءً من الثامنة مساءً وحتى السابعة صباحًا، و.. إعلان حالة الطوارئ.

أغلقتُ التلفاز، وأنا أُذكِّر نفسي بأنها ليلة الخميس، ولا يصح فيها إلا الصحيح؛ فلا مجال لأيّ مشاعر سلبية الآن، خاصةً أنَّ طعم مشروبي المُفضّل لا يزال في فمي.

فلا أعلم متى ستُتاح لي فرصة كهذه، ربما لن تأتي ثانيةً؛ فزوجتي غاضبة عند أخيها منذ أمس بعد عِراك دام ساعات، اشترك في فضِّه كل الجيران بالحي والأحياء المجاورة.

لا أنكر حقيقة أن الجيران هنا على دراية كاملة بتفاصيل حياتي، ربما أكثر منِّي! فلا يبدأ حوار بيني وبين زوجتي المصونة، إلا وينتهي بشجار ونواح وعويل..

- يا «أم سعيد».. يرضيكي إن المنيِّل دا مش راضي يوديني أصيِّف أنا والعيال يومين تلاتة؟ قرَّبنا نفطس من الحر يا وليَّة. مش طلبت أسبوع يعني يا كافر!

- يا «أم علي».. تعالي اشهدي على ابن العبيطة دا؛ داخل لي يا اختي بالجزمة في الصالة وأنا لسة ماسحاها ومش نشفت، يا هدِّة حيلي يا حوستي!
- يا «أبو شحاتة».. يرضيك الراجل يسيبني ويروح ينام في أوضة العيال، وأنا بقالي ساعتين بجهِّز في نفسي ولابساله القميص الأحمر أبو عشرين جنيه؟ حار ونار في جتته. بُص يا اخويا القميص قصير وعريان ازاي، بُص.. علشان تعرفوا بس إني عمري ما قصّرت معاه في حاجة.. يا ميلة بختي ياني!

وابتسمتُ رغمًا عنِّي حين تذكرتُ شجار الأمس، الذي انتهى بي لهذه النهاية السعيدة؛ حيث حكَمَتْ بيننا جارنا اللزج، صاحب محل البقالة:

- الحقني يا «أبو لؤي».. الراجل شغال ليل ونهار ومش بنشوفه، ومش مكفينا يا اخويا، مش مكفينا. حاطط إيده في الميّه الباردة ومش عاوز يشتغل يوم الجمعة، والنبي يرضي ربنا إنه ما يشتغلش يوم الجمعة؟! قال وبيقولوا ضل راجل ولا ضل حيطة، إلهي تنهد حيطان الدنيا كلها فوق روسكم يا بُعَدَا..

وضحكْتُ بشماتةٍ حين أنهت هذه المشاجرة بارتداء عباءتها السوداء وجرِّ أولادنا الثلاثة في ذيلها، وتوالت الأقسام الغليظة من بين شفتيها المكتنزتين إنها لن تعود للبيت حتى أذهب لاسترضائها

من بيت أخيها، والإيفاء بكل متطلباتها التي لا تنتهي. وهذا بالطبع ما لن أفعله، على الأقل اليوم وغدًا.

رُحت أجوب الشقة الساكنة ذهابًا وإيابًا، مُدندنًا:

ـ ليلة الخميس.. تيرا..

ليلة الخميس.. تيرارا..

وقفتُ أخيرًا أمام السرير بنظرات عطشى، مِلْؤها الشوق ولوعة الانتظار.. لا أصدِّق نفسي بأنِّي سأنام وحدي على السرير، ولن أستيقظ للعمل باكرًا. سأنام حتى الظهر.. لا، بل العصر.. وربما للمغرب.. إنها ليلة الخميس.

احتضنتُ السريرَ بكلتا يديَّ، وغبتُ في سُبات جميل يخلو من زوجة مُزعجة وضجيج أولاد، يقولون إنهم أبناؤك.

طرق شديد على الباب أيقظني فَزِعًا، جعلني أقفز بلا تفكير لأجد نفسي أمام باب الشقة، وقبل أن تلمس قبضتي المزلاج، تبيَّنتُ صوت زوجتي وأخيها، فابتعدت كالمصعوق، وقررتُ مُرتجفًا ألَّا أفتح الباب.

ـ مش قلت لك؟ زمانه بيتسكّع في الشوارع ومش هييجي قبل الفجر. اكسر باب المخروبة دي.

أسمع خطوات ثقيلة تبتعد، وتعود لتقترب..

ـ يا لهوي.. الباب!

هرعتُ مسرعًا وفتحتُ البابَ في اللحظة المناسبة، فاندفع أخوها عريض المنكبين هذا بكل قوته إلى الداخل، مُصطدمًا

بالحائط المقابل، ليسقط وتسقط ساعة الحائط، لتتهشم فوق رأسه..

ـ الساعة!! آآ.. قصدي.. سلامتك، سلامتك..

اقتربتُ أمدُّ يدي إليه لأعينه على النهوض، فدفعني جانبًا، صائحًا بلهجة لا تخلو من التهديد:

ـ مراتك عندك، تشوف طلباتها وتبقى راجل وتكفِّي بيتك، وإلا الكلام هيبقى معايا المرة الجاية.

دفع بزوجتي والأولاد للداخل، وغادر مسرعًا بعينين ظافرتين؛ ليلحق بليلته..

يالغبائي!

تنبهتُ حينها إلى أن زوجتي الثرثارة لم تنطق بحرفٍ بعدُ. غريبة.. أأصاب لسانها مكروه؟ وهل يجرؤ؟!

رمقتُها بطرف عيني خِلسةً، فإذا بها تحملق فيَّ بعينين حمراوين، وقد اتسعتا عن آخرهما. لم تكُن تنظر إليَّ في الحقيقة؛ بل للفانلة والشورت..

ـ زكي! إيه اللي انت لابسه دا يا منيِّل؟ دا أنا مش فاكرة لك آخر ليلة حمرا بينّا كانت إمتى!

ثم شهقت بشدة، وكأنها اكتشفت السِّرَّ الأعظم، ضاربةً بيدها اليمنى على صدرها:

ـ انت ما صدقت إني مشيت وجبت لي واحدة ست في بيتي، هنا، على سريري.. يا لهوي!

وتعالى عويلها، أتبعه صراخ الأولاد من الفزع المعتاد، بينما تعدو هي كالممسوسة داخل الشقة..

غرفة النوم.. غرفة الأولاد.. الحمام.. المطبخ.. تعود ثانيةً لغرفة نومنا، تبحث تحت السرير، وداخل الدولاب..

- يا خراشي..

يا سعاد..

يا عديلة..

يا أم السعد..

يا أبو كريم..

يا أبو الزفت لؤي..

يا لهوي!

لا أدري ما هذه العتمة التي أحاطت بي فجأة.. أتدور الدنيا من حولي، أم أنا الذي أدور؟!

تحرُّش

«مُستباحةٌ أحلامنا في طرقات العُمر؛ تنهشها الذئاب..
لا تقترِب من هذا الحُلم اللعين.. فهو في فم أحدها!».

يسرقون أحلامك، يئدونها، بل يجهضونها قبل المخاض..

أراكِ في ظل مجتمعكِ العقيم، تتجرعين عفن التقاليد. يزداد صخب العالم حولكِ.. يدق ناقوس الخطر كل ساعة، كل دقيقة؛ مرة.. مرتين.. ثلاثًا.. مائة.. ألفًا! وماذا عساه الناقوس أن يفعل، وقد صُمَّت الآذان؟!

فها هو أحد النواقيس يدق هناك، في إحدى الحافلات؛ حيث تمتد أصابع الشاب خِلسة لتعبث بجسد الفتاة في المقعد المقابل. تمتد بجرأة أسفل المقعد، بينما تحمل يده الأخرى لفافة صغيرة، ليخفي بها ما يفعله من شذوذ..

مُفلِس الروح هو، شاحب العقل، متأجِّج الغريزة، يعلم – مُقدَّمًا – أن مقاومته عبث؛ منتهى العبث!

تتململ الفتاةُ في جلستها، تتدفق الدماء بوجهها ويفور رأسها.. يخفق وجدانها.. يستغيث كيانها، فتبعث بنظرات راجية لمن حولها من الرجال المتزاحمين، فيفرون بأعينهم، وكأنها لا تقع داخل مجالهم البصري، أو أن الأعين قد خُلِقَت لديهم لغرض آخر غير الرؤية.

تتفاقم النشوة.. فيندفع الشاب فاقدًا السيطرة على رغبته المجنونة، حتى إنك تكاد تشعر باهتزاز مقعد الفتاة بأكمله، وبشكل ثابت متواتر..

فتهُب الفتاة مستديرةً لتواجهه، صارخة:

ـ كُف عمَّا تفعله أيها الحيوان القذر!

ـ لم أفعل شيئًا.

قالها بعين جريئة، ونبرة وقحة. فصاحت به إحدى السيدات:

ـ بل فعلت، وما زالت أصابعك تحت مقعدها وأنت تتحدث!

فصاح بها هي الأخرى بلهجة أكثر وقاحة.

تعالَى الصياح، وتدافعت الكلمات والشتائم، ولم يتدخل رجل قط لإيقاف ما يحدث..

إلى أن علا أخيرًا صوتٌ ذكوري، كان للجسد الواقف بجانب مقعد الفتاة مباشرة – ربما مكانه الذي شاء له القدر أن يقف فيه، هو ما أجبره على التحدث – فهتف ببرود:

ـ لا عليكم يا سادة، لم يحدث شيء لهذا كله! ثم انظروا إلى ثيابها.. إنها هي مَن...

أخرسته لكمة قوية من الفتاة، أطاحت نظارته الطبية، وألقت به إلى الوراء من فرط الصدمة، أعقبها صراخ إحدى السيدات في السائق بأن يتوقَّف، فتوقَّفت الحافلة بفرملة قوية، أحدثت صريرًا مزعجًا، صاحبه اندفاع الركاب جميعًا للأمام، وبحدَّة..

تزاحم الباب، وهرع إلى الخارج مَن هرع. بينما اندفعت الكثيرات نحو الشاب المُتحرِّش يجررنه إلى خارج العربة، وقد ألجمته المفاجأة.

فحين تعين يقينًا أنكِ في حياة الغاب؛ حيث لا مجال لمنطق أو لإعمال عقل، سيكون حتمًا عليكِ الإيمان بنظرية «البقاء للأقوى».

حين لا يذهب مجتمعكِ إلى ما يُربِك عقله وضميره تجاهكِ؛ فيختار لكِ الهوان ويستبيحك.. ستعلمين وقتئذٍ أنَّ «البقاء للأقوى».

حين تُنتهَك أنوثتكِ، تُغتصَب آدميتكِ، وتُحاكَمين بعدها – أنتِ – على انتهاكك واغتصابك.. ستؤمنين حتمًا أن «البقاء للأقوى».

حين تخنع الرؤوس، وتُشَل الأيدي والألسنة عن الدفاع عنكِ.. ستدركين وقتها ما كان عليكِ فعله من البداية.

كان ارتطام رأس الشاب بحافة الرصيف حادًّا عنيفًا، أفقده بعض وعيه. فلم يعُد يرى أمامه سوى خيالات..

فأي خيالٍ كنتِ بينهنَّ؟ أعلم أنكِ كنتِ هناك. أوَتذكرين كم مرة تعرَّض جسدك للانتهاك على أيدي أمثاله من الرعاع؟ أقسم إنكِ ستكذبين!

أأنتِ تلك الفتاة التي انهالت عليه باللكمات والصفعات على وجهه وصدره.. وكان قد تم تجريدها من ثيابها في الطريق والعبث بها، ليُحكَم على الفاعل بكفالة مئة جنيه مع حبس أسبوعين؟!

هل أنتِ تلك المُنتقبة التي أخرجت سكينًا صغيرًا من حقيبة يدها، وراحت تشق وجه الشاب بنصله الحاد.. وكانت قد دافعت عن نفسها أمام أحد المتحرشين قبلًا، فأحدث جرحًا غائرًا وعاهة مُستديمة بوجهها، ألبَسَتْها النقاب قهرًا..

أم تلك التي تناولت السكين من يدها، وشرعت في تمزيق بطنه وإخراج أحشائه، بعد استئصال عضوه الأحمق.. وكان قد تم اغتصابها والتشهير بها في إعلام سافر، يتاجر بالشهوات. وكان الإفراج حليف المُغتصِب؛ إذ اكتشف القضاء فجأة كم هو مضطرب نفسيًّا..

أم أنتِ تلك الأم التي حملت حجرًا كبيرًا وألقت به على رأس الشاب، فتهشَّم.. تهشَّم الحجرُ والرأس. وكانت قد رأت أحدهم يعبث بصدر طفلة لم تتعدَّ السادسة، ممسكة بطرف جلباب أمها

في السوق، بينما تنهمك الأم في شراء حاجاتها. وعندما اقتربَت لتنبِّه الأم بما يحدث، لاذ هو بالفرار..

مُفلِس الروح هو، شاحب العقل، متأجِّج الغريزة، يعلمُ – مُقدَّمًا – أن مقاومته عبث؛ منتهى العبث!

يعلو ناقوس الخطر.. يدوِّي كقصف هائل.. يثور كقذف بركان هائج، يلفظ حميمه وغليانه.. يُلقي بلعناته على كل مُدَّعي الإنسانية، ومُغتصِبيها.

غادرت الفتيات، كلٌّ في طريقها.. وبقيت أشلاؤه غارقة وسط بركة من الدم النجس. وحدها الكلاب الضالة مَن أسرعت لمواساته، فراحت تتسابق في نهش لحمه بضراوة.. تمامًا كما كان يفعل!

أرواحٌ لا تغيب

«بعد الرحيل..
أخبرتني السماء كيف كنتَ هبةً منها.. فقبَّلتُها بين عينيها..
ذكَّرتني الأرض كيف آوتكَ يومًا.. فعانقتُها شوقًا وطمعًا..
وحين بكت لي روحي..
أدركت أنِّي سأظل عالقةً هناك..
ما بين قُبلات بلا شفاه..
وعناق.. يفتقد اللقاء!».

تناهى إلى مسامعها صوت والدها يُخاطبها من غرفته.. اتسعت عيناها بدهشة مُحدِّقةً في الفراغ، وأطرقت أسفًا.

عاودها الصوت يناديها، أصبح أكثر وضوحًا من ذي قبل.. تضاعفت دهشتها، مُعلِّقة عينيها بغرفة أبيها؛ مصدر الصوت الذي طالما ألفته مسامعها، منذ أدركت حواسها كيف يكون السمع. ترقرق الدمع بعينيها، وعادت لإطراقها بأسف أكبر.

ولكن.. يعاودها النداء بإصرار، ينتزعها من إطراقها لتهُبَّ واقفةً في حيرةٍ بالغة.. كيف يُلاحقها النداء هكذا من غرفة أبيها، وقد وافته المنيَّة منذ أيام؟!

أخذتها خطوات متثاقلة مُرتعدة.. توقَّفت رغمًا عنها عند حافة الباب، حين وقع ناظراها على أبيها مُستلقيًا على فراشه كعادته، يُطالع التلفاز، متابعًا قنواته الإخبارية..

اتسعت عيناها، وتراجعت خطوة حادة للوراء، وقد انعقد لسانها.. فأتاها صوت أبيها الحنون، متسائلًا:

ـ أين أنتِ؟ أوَلا تسمعين ندائي؟!

ألجمتها لوعتها وهي تطالع وجه أبيها. أرادت الحديث، ولكن.. غُصَّة بالقلب والعقل منعتها أن تنبس ببنت شفة. فابتسم الأبُ مُتأملًا ابنته بحُب، وراح يخاطبها مداعبًا:

ـ ماذا دهاكِ؟ أوَتدَّخرين تغريد صوتك لحبيبٍ غيري؟

يالها من بائسة.. هو أبوها بالفعل؛ ملامحه، حنانه، شعره الأبيض، بيجامته، مشاكسته لها..

دخان سيجارته يملأ المكان..

دارت الدنيا من حولها، وبالكاد همست:

ـ أبي.. أحقًّا أنت هنا؟!

يقهقه الأب كعادته، ويستمر في مداعبتها متمتمًا:

ـ وماذا ترين؟ اذهبي وأحضري نظارتك الطبية، أو ارتدي عدساتك اللاصقة إن شئتِ.

ـ أخبرتُكِ مرارًا ألا تسيري تتحسسين طريقكِ هكذا.

وعلت ضحكة الأب بودٍّ..

ترقرق دمعها أكثر، فتركت له العنان، هامسة بصوت مختنق:

ـ أبي.. ظننتك رحلت!

ـ أرحل! منذ متى وأنا أتركك وأرحل؟! وما هذا السواد الذي ترتدينه؟ أوَلا تعلمين أنِّي لا أحب ارتداءك إياه؟! اذهبي واستبدليه.. وأحضري من في البيت لنتسامر قليلًا، فقد اشتقتُ للجلوس معكم.

أجابه صوت دمعها المنهمر، وهو يتدافع ألمًا وقهرًا. فعاود سؤاله في حنان:

ـ ماذا بكِ يا حبيبتي؟ وما هذا السكون؟ أين مَن في البيت؟

خرج صوتها متهدجًا، سمعه بالكاد:

ـ لا أحد في البيت يا أبي.. قد رحلوا برحيلك.

وكأن آخر حروفها كان نهاية ما تبقَّى لديها من بقايا قوة تتوكأ عليها، فأجهشت ببكاء حار، اهتزت له كل ذرة في كيانها الضائع..

«أكرمتني يا حبيبي، فخذلني الوجود من بعدك..

خذلني الجميع من بعدك!

صفع غيابك فقرات ظهري، فكيف لي بعدك أن أستقيم؟!

زلزلني رحيلك يا حبيبي..

زلزلني وربي..
وربي زلزلني..
ولا يزال يعصرني في كل اتجاه..
فلا أرض بعدك ولا سماء..
أبدًا، لا أرض بعدك ولا سماء!»..

وأجهشت في بكائها المُلتاع..

جزع الأب لحالها، فاحتضنها بعينيه هامسًا:

ـ رفقًا بنفسك يا حلوتي.. فما نحن سوى أرواح.. نظن أننا نتلاقى لنفترق.. أوَتوجد الروح في مكان دون سواه؟! هي لا تعرف للرحيل طريقًا، ولا للموت سبيلًا. هي مِن روح الله يا صغيرتي.. أوَلا تعين معنى أن تكون روحك نفحة من روح الله تعالى؟!

علا نحيبها، وامتلأ الكون حولها بالدمع، حين فتح والدها ذراعيه عن آخرهما في حب وحنان، ليحتضنها..

كم كان يفعل ذلك قبل اليوم، وكانت تستحي منه، فتفلت من بين ذراعيه في خجل..

حمقاء كانت؛ لم تفكر في لحظة كهذه!

هرعت إليه، تسبقها لوعتها، لتلقي بنفسها بين ذراعيه الممدودتين، صارخةً:

ـ أبي.. لن أستحي منك بعد اليوم يا أبي.. أبدًا لن أفعل.

وألقت بجسدها المشتاق في حِضن أبيها، والحنين إليه يكاد يمزِّقها.. فإذا بها تصطدم بالفراش الخالي من أنفاس أبيها الدافئة، وذراعيه الحانيتين..

تصطدم بواقع ملموس؛ كابوس هو في وطأته.. واقع اعتصرها بقبضته القاسية، مطبقًا على أنفاسها ونبضها وسنوات عمرها الماضية والآتية، منتزعًا منها ما قد يكون تبقَّى لديها من بقايا أمان، وفتات حنان.. واقع، رحيل أبيها!

«أبي.. لا...

لا تتركْ صغيرتَكَ تتدثر بالعراء..

عُد، إن كان بإمكانك أن تعود..

لو تعلم يا حبيبي كم أنا عارية من دونك..

لناشدتَ الموتَ من أجلي..

لناشدتَ ربكَ من أجلي!».

دفنت وجهها في طيات الفراش، وأجهشت ببكاء محموم، بينما علا نحيبها لترتعد من أجله الجدران..

فما أقساه هاك النحيب المنبعث من الموتى الأحياء!

بنات

ـ مبروك، الجنين بنت إن شاء الله.

قالتها الطبيبة بابتسامة، بينما نزل بي الخبر كالصاعقة..

فلكم تمنيتُ أن تقول أي شيء غير ذلك، أي شيء.. حتى لو قالت إن الجنين مات ببطني، فلتقُلْها. فلتخبرني أنه مشوَّه وسيموت الآن، أو رُبما بعد ولادته. ولكن، كيف طاوعها قلبها أن تتفوه بما قالت؟!

احتبس الدمع في عينيَّ بينما أرمُق، بكل البغض، الجهاز اللعين هذا؛ ربما أخطأ..

تشير الطبيبة بإصبعها إلى خيالات بالشاشة لا أفقه عنها شيئًا؛ هذا رأسها.. يدها.. تلك قدماها.. وما تسمعينه الآن هو دقات قلبها بالطبع!

ـ عليكِ الانتظام في متابعة الحمل الفترة المقبلة؛ ستكون كل أسبوعين بإذن الله، ولكن إن حدث أي طارئ فلتأتي على الفور. اعتني بنفسك.

وخطَّت يدها الفيتامينات المعتادة، التي أصرفها من الوحدة.

هززتُ رأسي بالموافقة، تناولت التذكرة، وشبح ابتسامة يتعثَّر على شفتيَّ..

غادرتُ الوحدة الصحية أجُرُّ خيبتي وطفلتيَّ. أحمل الصغيرة فوق كتفي، بينما تتعلق الأخرى بطرف جلبابي.. ورُحت أجوب الشوارع الضيقة بلا غاية.

ذهبتُ إلى السوق واشتريت حاجات لم أكُن بحاجةٍ إليها. حادثت هذه ووقفت أثرثر مع تلك، على غير عادتي، حتى ألهبتنا الشمس، وراحت الصغيرتان تبكيان من شدة الحر، فجلست بهما في مكان ظليل أعاتب نفسي..

ما هذا الذي أفعله؟! فمهما تأخرت وتسكعت، عليَّ العودة للبيت في النهاية.. فكيف سأعلِّل سبب تأخيري هذا؟ ولكن.. ماذا سأقول لحماتي التي تنتظر عودتي على أحرِّ من الجمر؟ كيف سأعترف أمامها بأنِّي سآتي إليهما ببنت ثالثة؟!

تذكرت لحظة معرفة حماتي بشأن ابنتي الثانية؛ كانت برفقتي في العيادة حينها، تركتني وغادرَت بحجة انتظاري بالخارج، وحينما انتهيت لم أجدها، وهجرني زوجي بعدها شهورًا كثيرة.

تركت دمعي ينهمر، وسلكتُ طريق العودة.

صفعني زوجي يومَ أخبرتُه بما سمعتُ من إحدى جاراتنا، أن الرجل هو من يحدِّد نوع الجنين؛ بنتًا كان أم ولدًا، وحين شكوت لأبي صفعني هو الآخر! ومن وقتها، صارت أيامي متشابهة..

أخدم حماتي في الصباح لأنها حماتي، وفي المساء أخدم زوجي في الفراش لأنه زوجي، وبالمثل أخدم طفلتيَّ اللتين أنجبتهما؛ لأنهما ابنتاي..

أهبُ كل ما لديَّ دون انتظار مُقابل، هكذا تكون الزوجة والأم.. هكذا أخبرتني أمِّي. فاعتدت صرامة زوجي، وابتلعت قسوة حماتي، تمامًا كما تغاضيت عن تلك الكوابيس التي توقظني فزِعةً، وبإصرار لا ينتهي، منذ تركت بيت أبي، وأتوا بي إلى هذا المَكان.

ـ غدًا الخميس، زفاف ابني على العروس الجديدة. تيقَّني من نظافة غرفتهما جيدًا.

قالتها حماتي ببساطة..

تجاهلتُ قسوةَ الكلمات، وما تحمله من شماتة، ونهضتُ من مكاني على الفور ـ تحاشيًا لسماع المزيد ـ مُتجهةً لغرفة في أقصى الدار، مُتمتمةً:

ـ حاضر!

وكيف لا يكون «حاضر»، وأنا «أم البنات»؟!

حتى الجنين في أحشائي.. اندلعت النيران في البيت منذ أخبرنا جهاز الأشعة التليفزيونية الأحمق هذا أنها بنت ثالثة، ولم تهدأ النيران من وقتها، فلعلّها تنطفئ بزواجه الثاني بالغد..

أدركتُ من حديثهما في الأيام الماضية أنها تُدعى «سارة»، تقطن إحدى القُرى المجاورة، وأن أهلها يرضون بأقل القليل.

لم أدرِ كيف مرَّ عليَّ اليوم التالي..

كنت مُطرقةً طوال الوقت، لا تتجاوز نظراتي الأرض، أو ما أقوم به من أعمال تنظيف وطهو. كنت أصُم أذنيَّ عن الطبل والزغاريد، وقبلهما عن الهمس الجارح، والتلميح اللاذع، وكلمات شفقة مُصطنعة لا حاجة بي إليها. وبالكاد، أغمضت عينيَّ أيضًا عن نظرات تكاد تُجرِّدني من ثيابي!

وكما أن لكل شيء نهاية، كما أخبرتني أمِّي، انتهى يومي. ووجدت نفسي أخيرًا بداخل غرفتي الصغيرة، بصُحبة طفلتيَّ، والسرير والدولاب. وكانت المرة الأولى التي أشعر فيها بأنِّي أتنفَّس بحرية داخل هذه الجدران.. مُتجرِّدة من ثِقل كان يجثم على صدري كل مساء!

رُحت أتأمَّل ملامح ابنتيَّ الجميلتين، كانتا تشبهانني كثيرًا. تطلعت لقرب عمريهما، مُتذكرةً حديث الطبيبة لي أكثر من مرة: «يجب عليكِ استخدام إحدى وسائل منع الحمل بعد ولادتك؛ فليس من المعقول أن تُنجبي طفلًا كل عام هكذا!»، فابتسمت. إنها طيبة القلب على أي حال.

أتيت لهما ببعض الحلوى، كنت أدسُّها لهما في الدولاب. التهمتاها بسعادة، بينما أراقبهما بسعادة أكبر حتى انتهيا، ثم

افترشتُ الأرض واحتضنتهما، وغبت في سُبات لم أتذوَّق حلاوته منذ زواجي.

نعم، لم تزُرني فيه كوابيسي المعتادة.

ركلة صغيرة بداخل أحشائي، أيقظتني صباحًا. تحسست فتاتي الثالثة، مُطمئنةً إياها؛ تلك الخطيئة التي لم أقترفها يومًا..

كانت أشعة الشمس قد امتدت لمنتصف السرير بالأعلى.. انزعجتُ لوهلة؛ فقد تأخرتُ في نومي كثيرًا عن المعتاد، ولكنِّي عُدت واطمأننت حين أدركت السكون يعُمُّ البيت؛ فما زالت حماتي نائمة، وحتمًا العروسان.

تحاملتُ على نفسي، بعد أن ابتسمت لطفلتيَّ النائمتين بحُبٍّ، ونهضتُ مُتجهةً للحمَّام قبل استيقاظ مَن في الدار. وفي منتصف طريقي بالمدخل المؤدِّي للحمَّام.. رأيت باب الغرفة الجديدة يُفتَح بحذر.. ظهرَتْ من خلاله فتاة صغيرة الجسم والعُمر، أدركتُ على الفور أنها تلك الـ«سارة»، ومن يكون سواها؟!

وددتُ تجاهلها، ومواصلة سيري إلى الحمَّام، لكن شيئًا ما بها استبقاني.. قيَّدني مكاني!

كانت شاحبة، واجمة.. رأيت دمعي في عينيها الزائغتين.. شعرت بأنفاسي حبيسةً داخل صدرها.. وكأن نبضي يتصارع هناك، في جوف قلبها..

لم أدرِ إن كنت أنا من هرعت إليها، أم هي مَن فعلت، كل ما أذكره أننا تعانقنا.. وبكينا!

حفل جماعي

«لا تلُم الحزن القابع في الثنايا..
أتعجَّب لشأنك..
أوَلم تعتَد عيناك على رؤيته بعد؟!».

التفت الصغير، الذي لم يتجاوز الخمس، إلى الوراء، محاولًا أن يرى أباه عبر الأدخنة الكثيفة المتصاعدة من كل مكان، وبالكاد وقعت عيناه عليه.

كان يسير مُنهكًا بقدميه العاريتين، حاملًا الجد على عاتقه، يتلفَّت يمنة ويسرة بحذر. تارةً يكون في الخلف، وتارة في المقدمة؛ يتحسس لهم الطريق.

يتسابق البرق والرعد على الرغم من الأجواء الصيفية، لتتوالى الانفجارات، وتعلو سحب الدخان هنا وهناك فتحجب الرؤية..

يسعل الصغير بين الحين والآخر، فتندفع يد الأم مسرعةً لتكتم فمه بقوة. ينظر إليها لائمًا، فتنسحب يدها لتعود إلى موضعها الأول، أسفل بطنها الذي يحمل جنينًا في شهره الثامن، لتهون عليها ثقل حملها بعض الشيء، بينما تحمل اليد الأخرى صغيرها، لتضمه إلى خصرها بقوة.

خِرَق بالية كانت، تلك التي تغطي أجسادهم الهزيلة، لتستر عوراتهم بالكاد..

طال بهم المسير داخل القرية. ساعات مرت منذ أن أيقظ الجدُّ العجوزُ ابنَه، بعد أن سمع أصواتًا مُريبة بالخارج، الذي أسرع بدوره بإيقاظ زوجته والصغير ليهرعوا جميعًا فارِّين إلى الخارج.. ليجدوا جميع المنازل حولهم تحترق. لا شيء سوى اللهيب، دخان كثيف يتصاعد، صرخات حناجر تحترق.. بعنف تحترق.

ساعات من المسير في اتجاه مدخل القرية، بلا أمل. لا شيء حولهم سوى الدمار، نيران تأكل نيرانًا؛ فالإبادة جماعية كما اعتادوا. وكلما أوشك الفجر على البزوغ، تزايد دويُّ الطلقات في كل مكان..

يسعل الصغير ثانيةً، وثالثةً، لتوقفه يد الأم في كل مرة، وبإصرار أكبر، فيكُفُّ عن لومها بعينيه باحثًا عن أبيه بين الحين والآخر.

ويتوقف سيرهم فجأة، إثر رصاصة اخترقت ظهر الجد لتمرُق من الناحية الأخرى، فينكفئ الجد للأمام، ويتبعه ابنه، بعد محاولة مستميتة منه لحفظ توازنهما معًا.

اندفع دم الجد متدفقًا، جاذبًا معه أطراف الروح شيئًا فشيئًا.. فتتراءى أمامه أحداث العُمر الذليل.. منذ البداية تراءت..

وكانت بدايته مع أول مذبحة شهدها، وقد راح ضحيتها قرابة المئة ألف، كان أغلبهم من النساء والشيوخ والأطفال. بالكاد سمح له جسده الصغير حينها أن يتوارى وسط الحطام، لتشهد عيناه على أكبر مجزرة بشرية، لا يتخيلها عقل!

ما زالت رؤيتهم محفورة في مخيلته بنصل حاد مُدمَّم؛ إذ كان الجميع عرايا، مُطأطئي الرؤوس. يقف الرجال في الجهة اليُمنى، مكبَّلي الأيدي من الخلف، يجمعهم سوار قوي طويل. والأطفال في المنتصف، ثم الشيوخ جهة اليسار. بينما تواجههم جميعًا النساء، في الجهة المقابلة؛ حيث يتمكن الجميع من رؤية بعضهم البعض.

كانت كل النساء عرايا.. عرايا..

وكان هؤلاء المدججون بالأسلحة والكراهية يملؤون المكان. انطلقت مدافعهم أولًا لتفتك بالأطفال وسط مرأى من الجميع، لتتمزَّق القلوب، وليتلقفها الموت قبل أن تلفظ أرواحها خارجًا.

يتعالى صياح الهمج ظافرًا، ليفتكوا بعدها بالنساء. يبقرون البطون، يهتكون الأعراض على الملأ كحيوانات ضالة لم تعرف يومًا جدرانًا!

يتذكَّر الجد كم انهمرت دموعه حينها، حتى إنه لم يعُد يميِّز ملامح أمِّه وأختيه من بين النساء. كان الرجال أيضًا يبكون، والشيوخ يرتجفون من شدة البكاء.

وحين انتهى هؤلاء من إشباع رغباتهم القذرة، انطلقت أسلحتهم في وجه الجميع على حدٍّ سواء؛ في الشيوخ وفي النساء، وبقايا الرجال الذين هُتِكت أعراضهم أمام أعينهم، وهم مُكبَّلو الإرادة، فماتوا قبل أن تدركهم طلقات المدافع.

وكانت المحارق في انتظار الجميع؛ من لقي حتفه منهم، ومن لم يزل أنفاسه تتردد، لتواصل بعدها خطةُ الإبادة العرقية حلقاتِها، بشكل منهجي واسع النطاق، متمثلًا في القتل والتهجير والتشريد، واغتصاب الممتلكات والنساء على حدٍّ سواء؛ فلا تعليم، ولا عمل آدمي، ولا قضاء مستقل. فأضحى الاتجار بالبشر هو المعتاد، وأصبح التهجير القسري هو أقصى أمانيهم؛ لتحملهم قوارب الموت لعُمق المحيط.

أوصدت أمامهم أبواب الأمل عبر السنين، فقط الموت من يفتح بابه دومًا على مصراعيه؛ فحرقًا يأتي.. شنقًا يأتي.. ذبحًا يأتي.. في حفلات جماعية.. دومًا يأتي!

وكأن موتهم قربان، عليهم التسليم به والتنفيذ..

رفع الجد إصبعه السبابة ناطقًا الشهادتين، دون أن يحرِّك شفتيه، وارتخت تجاعيد وجهه، ليسدل ستائر الموت على ماضيه البشع، تاركًا إياهم في واقع لا يقل عنه بشاعة.

انهمرت دموع الابن وهو يحاول حمل جثة أبيه ثانيةً ليعاود العَدْو.. انكفأ به، فانتصب ليحاول مرة أخرى، ولكن.. يدنو وقع الأقدام بوحشية. تدوِّي الطلقات في الهواء وتقترب. تلاحقه دموع زوجته متوسلة، بينما يتطلع إليه الصغير مُرتجفًا، لا يجد ما يقول.

ولم يعُد لدى المسكين بُدٌّ، فترك جثة الشيخ العجوز مُضرَجةً بدمائها بعد أن لثم جبينه، وهرع إلى زوجته مُمزَّقًا، حاملًا ابنه الصغير على كتفه، الذي انحنى أرضًا قبلها بلحظة واحدة؛ ملتقطًا قطعة صغيرة من الحجر الأبيض المُتخلِّف إثر قصف جدران المنازل، وأخفاها بداخل كفه الصغيرة جيدًا؛ كي يتمكَّن من الرسم بها على الجدران، كما اعتاد.

«لماذا تركنا جدي وحيدًا؟!»..

لم يستمر العدو كثيرًا.. فلم تمر سوى لحظات، وكانوا محاصَرين بالمدافع الرشاشة من كل جانب..

سويعات قليلة، ويتوالى المشهد أمام الصغير المُتكئ على بقايا أحد الجدران، مُحاطًا بالأطفال في مثل عمره، وممَّن يكبرونه أو يصغرونه بالقليل.

يتعالى صياح الأطفال من حوله، بينما يذرف دموعه في صمت، وتجاهد عيناه لتجدا أمَّه بين زمرة النساء.. أو ربما لتريا أباه وسط جماعة الرجال المُكبَّلين هناك..

ينتشر المدججون بالأسلحة ليغمروا المكان.. تعلو صيحاتهم الشرسة.. وتحلِّق طيور الموت، لتتجه المدافع الرشاشة صوب الأطفال أولًا، فتندفع الطلقات مُخترقة رؤوسهم، وبشكل مباشر مُتَّفق عليه، ليستحيل الأطفال في لحظات لكتلة من اللحم المُدمَّم، بعد أن رحل بكاؤهم إلى الأبد.

وتظهر من خلفهم بقايا الجدار شاهدة.. حاملة آثار الطلقات، وبعض حروف من الجير الأبيض المُلطَّخ بالدماء:

- بـ و ر ما..

نبذة عن الكاتبة

د. منى محمد محمود..

من مواليد القاهرة، حاصلة على بكالوريوس الطب والجراحة- جامعة عين شمس.

فازت بقصة «سمراء» في مسابقة القصة القصيرة لدار المكتبة العربية، وتم نشرها في الكتاب المجمع «المنفيون إلي جوار السحاب» في عام ٢٠١٨م.

للتواصُل مع الكاتبة

www.Facebook.com/semsema.yoyoluka
semsemasamsoma2000@gmail.com

فهرس

إهداء	٥
شكر خاص	٧
المقدمة	٩
لحظة ميلاد	١١
ثورة جِيَاع	١٧
أنَّات مُهترِئة	٢٥
سترٌ مكنون!	٢٩
عالم بلا رجال	٣٤
القتل الرحيم	٥٤
ألزهايمر	٥٩
هشاشةُ روح	٦٤

ليلة الخميس	٧٤
تحرُّش	٨٤
أرواحٌ لا تغيب	٨٩
بنات	٩٤
حفل جماعي	٩٩
نبذة عن الكاتبة	١٠٥
للتواصُل مع الكاتبة	١٠٧

كاريزما
للنشر والتوزيع